سلسلة شروحات وتطريزات فضيلة الشيخ (٢١)

شرح
بهجة الطلب
في آداب الطلب

منقول من الشرح الصوتي لمعالي الشيخ الدكتور

صالح بن عبد الله بن حمد العصيمي

عضو هيئة كبار العلماء والمدرس بالحرمين الشريفين

غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين

النسخة الثانية

الكتاب الأول
١

برنامج أصول العلم
المستوى الثاني

السنة الخامسة
١٤٣٧ / ١٤٣٨

شرح
بهجة الطلب
في آداب الطلب

سلسلة شروحات وتطريزات فضيلة الشيخ (٢١)

شرح

بهجة الطلب

في آداب الطلب

منقول من الشرح الصوتي لمعالي الشيخ الدكتور

صالح بن عبد الله بن حمد العصيمي

عضو هيئة كبار العلماء والمدرس بالحرمين الشريفين

غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين

النسخة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الَّذي جعل للعلم أُصولًا، وسَهَّل بـــها إليه وُصولًا، وأشهد ألَّا إلٰه إلَّا الله وحدَه لَا شـــريك لهُ، وأشهد أنَّ مـــحمَّدًا عبدُه ورسوله صلَّى الله عليه وعلى آله وصـحبه مَا بُيِّنَتْ أُصـولُ العلومِ، وسَـلَّم عليه وعليهم ما أُبْرِزَ الـمَنْطُوقُ منها والـمفهومُ.

أمَّا بعدُ:

فَهٰذَا شَـــرْح (**الكتاب الأوَّلِ**) من (**الـــمستوى الثَّاني**) مِنْ برنَامجِ (**أُصُـولِ العلمِ**) في (**سـنتِهِ الخامسـةِ**)؛ سـبعٍ وثلاثينَ وأربعمائةٍ وألفٍ، وَثمـانيةٍ وثلاثينَ وأربعمائةٍ وَألفٍ، وهو كتابُ «**بَـهْجَةُ الطُّلَب فِي آدَابِ الطَّلَب**»، لـمُصنِّفه صالحِ بنِ عبد اللهِ ابنِ حمدٍ العصيميِّ.

قالَ المصنِّف وفَّقـهُ الله:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْـــــــدُ للهِ لَهُ الْإِحْـــــكَامُ ثُـــمَّ الصَّــلَاةُ بَعْـدُ وَالسَّــلَامُ
عَلَى مُحَمَّــــــدٍ رَسُـــولِ اللهِ وَآلِهِ طُــــرًّا بِــــلَا تَنَـــاهِي
وَبَعْـــدُ ذِي أُرْجُــوزَةٌ جَــدِيرَهْ بِـــالْحِفْظِ وَالْإِدْرَاكِ بِالْبَصِـــيرَهْ
لِلُّؤْلُــؤِي تُعْــزَى أَوِ الْمَــأْمُونِ وَنَصُّـــهَا الْمَجْــلِيُّ لِلْعُيُـــونِ

قال الشَّارح وفّقه الله:

ابتدأ النَّاظِمُ وفَّقه اللهُ منظومتَهُ بالبسملةِ، ثمَّ ثَنَّىٰ بالحمدلةِ، ثمَّ ثَلَّثَ بالصَّلاة والسَّلام علىٰ رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقرونةً بالصَّلاة والسَّلام علىٰ آلِهِ.

وهَؤُلَاءِ الثَّلاث مِن آدابِ التَّصنيفِ اتِّفاقًا؛ فإنَّ مِن مُستحسنات الآدابِ في ابتداءِ التَّصانيف: أنْ يُقدَّم في صَدرِها البسملةُ، ثمَّ يُثنَّىٰ بالحمدلَة، ثمَّ يُثَلَّثَ بالصَّلاة والسَّلام علىٰ النَّبيِّ وعلىٰ آله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعليهِمْ أجمعينَ.

وأَكَّد النَّاظِمُ الصَّلاةَ عَلَىٰ الآلِ بقولِه: (طُرًّا)؛ أَيْ جميعًا؛ تحقيقًا لشُمولِها آلَ النَّبيِّ كُلِّهم؛ وهم بنُو هاشِمٍ القُرَشيُّونَ وأزواجُ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فاسْمُ (آلِ مُحمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَجْمَعُ شَيْئَيْنِ:

- **أَحَدُهُمَا**: مَنْ نَسَلَ مِنْ ذُرِّيَّةِ هَاشِمٍ.
- **وَالآخَرُ**: أَزْوَاجُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ وَلَوْ كُنَّ مِنْ غَيْرِ بَنِي هَاشِمٍ أَوْ قُرَيْشٍ.

وَالـمَخْصُوصُونَ بِالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ مِنَ الآلِ: هُمُ الـمُسْلِمُونَ مِنْهُمْ.

وجَعَل النَّاظمُ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ علىٰ النَّبِيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وعلىٰ آلِه ممدودةً غيرَ محدودةٍ؛ لقوله: (بِلَا تَنَاهِي)؛ أيْ بلا حَدٍّ تنتهي إليهِ.

والمَطلُوب شرعًا: الإكثَارُ مِنَ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ علىٰ النَّبِيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وعَلَىٰ آلِهِ.

وَالمُرَادُ بِـ(الإِكْثَارِ): غَلَبَةُ الأَمْرِ عَلَىٰ العَبْدِ حَتَّىٰ يَتَمَيَّزَ بِهِ، فَالمُكْثِرُ مِنَ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ علىٰ النَّبِيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وعلىٰ آلِه هوَ الَّذِي يغلِبُ عَلَىٰ لِسَانِهِ ذِكْرُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عليهِ وعليهِمْ.

ورُوِيَتْ أَحَادِيثُ فِي جَعْلِ ذَٰلِكَ عَشْرًا، أَوْ مِائَةً، أَوْ خَمْسِينَ، أَوْ أَلْفًا = وَكُلُّ تِلْكَ الأحاديثِ لَا يَثْبُتُ مِنْهَا شَيْءٌ، **فَالأَحَادِيثُ الوَارِدَةُ فِي تَقْدِيرِ عَدَدٍ يُصَلَّىٰ وَيُسَلَّمُ بِهِ عَلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ضِعَافٌ لَا يَصِحُّ مِنْهَا شَيْءٌ.**

واسم (الإكثارِ) يحصل بغَلَبتها علىٰ لسان العبدِ.

فمثلًا: المأمورُ به من الإكثارِ من الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ علىٰ النَّبِيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ليلةَ الجمعةِ ويومَهَا لا يحصُل بِعَدَدٍ مُعَيَّنٍ، بأنْ تُصلِّيَ عشرًا، أو خمسينَ، أو مائةً، أو ألفًا، وإنَّما يحصلُ بِأَنْ تَغْلِبَ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ علىٰ لسانِك في أحوالِكَ في تلك اللَّيلةِ ويومِهَا.

فلو قُدِّرَ أَنَّ أحَدًا صَلَّىٰ وسَلَّم قطعةً من اليومِ جَلَس فيهَا فصلَّىٰ وسلَّم خَمسينَ أو مائةً؛ فاسمُ (الإكثَارِ) لا يتحقَّق عليهِ، وإنَّما يتحقَّق بِأَنْ تَغْلِبَ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ علىٰ لسانِه في جميعِ ذَٰلِكَ اليومِ وليلتِه.

وَمِنْ حِسَانِ المَأْثُورَاتِ: مَا رَوَاهُ قَوَّامُ السُّنَّةِ الأَصْبَهَانِيُّ، فِي كِتَابِ «فَضَائِلِ الأَعْمَالِ»، عَنِ الحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ أَنَّهُ قَالَ: «عَلَامَةُ أَهْلِ السُّنَّةِ: كَثْرَةُ الصَّلَاةِ عَلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

ثمَّ ذَكَر النَّاظم أنَّ المسوقَ هنَا مِن نَظْمِهِ حقيقٌ بأمريْنِ، هو جديرٌ بهما:

❁ **أحدهما**: الحفظُ للمَبَانِي.

❁ **والآخر**: الفهمُ للمعانِي.

فِي قولِهِ:

وَبَعْدُ ذِي أُرْجُوزَةٌ جَدِيرَهْ بِالْحِفْظِ وَالْإِدْرَاكِ بِالْبَصِيرَهْ

فقولُه: (بِالْحِفْظِ)؛ إشارةٌ إلىٰ حِفْظ المباني.

وقوله: (وَالْإِدْرَاكِ بِالْبَصِيرَهْ)؛ إشارةٌ إلَىٰ فَهْمِ المعانِي؛ لِأَنَّ **حقيقةَ الإِدْرَاكِ**: الفَهْمُ، **وَآلَتُهُ**: البَصِيرَةُ القَلْبِيَّةُ، فمَنْ وَجَّه بصيرتَهُ القلبيَّة في وَعْيِ شيءٍ فَهِمَهُ وأَدْرَكَهُ.

وَهٰذِهِ المنظومةُ الَّتي اصْطَفَاهَا ناظمُهَا لتكونَ رأسَ ما يُحْفَظُ في آدابِ الطَّلَب، مِمَّا شُهِرَ بعضُ أبياتِهَا مُرْسَلًا، فَسَتَعلمُ فيمَا يُستقبَل أنَّ هٰذِهِ المنظومةَ ممزوجةٌ بينَ نَظْمِ ناظمِهَا الَّذي جَعَلَ لَهَا مُقَدِّمَةً وخاتمةً، مَعَ أبياتٍ تُنسَب لغيرِهِ؛ هيَ المبدوءة بقوله: (ٱعْلَمْ بِأَنَّ الْعِلْمَ بِالتَّعَلُّمِ) إلَىٰ تمام المنظومَةِ؛ سوىٰ البيتِ الأخيرِ.

فَمَا بَيْنَ الْمُقَدِّمَةِ وَالخَاتِمَةِ اخْتُلِفَ فِي قَائِلِهِ، فَعُزِيَ إِلَىٰ رَجُلَيْنِ:

❁ **أَحَدُهُمَا**: اللُّؤْلُؤِيُّ؛ وَهِيَ نِسْبَةُ جَمَاعَةٍ، أَشْهَرُهُمْ: الحَسَنُ بْنُ زِيَادٍ اللُّؤْلُؤِيُّ، مِنْ فُقَهَاءِ أَصْحَابِ أَبِي حَنِيفَةَ النُّعْمَانِ.

❁ **وَالآخَرُ**: المَأْمُونُ؛ وَهُوَ لَقَبُ الخَلِيفَةِ العَبَّاسِيِّ عَبْدُ اللهِ بْنُ هَارُونَ القُرَشِيُّ المُطَّلِبِيُّ.

فَعُزِيَتْ إِلَىٰ هٰذَا، وعُزِيَتْ إِلَىٰ هٰذَا، وَلَمْ يُعْلَمْ قَائِلُهَا عَلَىٰ وَجْهِ التَّحْقِيقِ.

وَلِصحَّةِ معانيهَا، وَلَطَافَةِ مبانيهَا؛ تَلَقَّاها أهلُ العلمِ بالقَبولِ، فَتَقَادَم ذِكْرُهمْ لهَا، وَأَقْدَمُ مَنْ ذَكَرَهَا - فيمَا يُعْلَم - هُوَ أَبُو عُمَرَ ابْنُ عَبْدِ البَرِّ فِي «جَامِعِ بَيَانِ العِلْمِ وَفَضْلِهِ»، وَعَدَّهَا أَحْسَنَ مَا قِيلَ فِي آدَابِ الطَّلَبِ.

وقولُه: (وَنَصُّهَا الْمَجْلِيُّ لِلْعُيُونِ) مَعَ مَا بَعدَهُ؛ يَدُلُّ علىٰ أنَّ هٰذِهِ الأبياتَ الأربعةَ الأُولَىٰ ليستْ منَ النَّظْمِ القديمِ الَّذي ذَكَره أبو عمرَ ابنُ عبد البرِّ وغيرُه؛ فَالأَبياتُ الأربعةُ الَّتي صُدِّرَتْ بِهَا المنظومةُ هي مِن نَظْمِي، ثمَّ خُتِمَت ببيتٍ جُعِل خَتْمًا لهَا.

فإنَّ العلم خَاصَّةً وَمَا يَنْفَعُ عَامَّةً إِذَا جُعِلَ بَيْنَ مُقَدِّمةٍ وَخَاتمَةٍ بَانَ نَفْعُهُ، وَاعْتَبِرْ هٰذَا فِي إِنْزَالِ القُرْآنِ مُنَجَّمًا فِي سُوَرٍ - أَيْ مُفَرَّقًا فِي نَسَقِ سُوَرٍ -، كُلُّ سُورَةٍ لَهَا مَطْلَعٌ هُوَ فَاتِحَتُهَا، وَلَهَا مَقْطَعٌ هُوَ خَاتِمَتُهَا؛ فإنَّ الشَّيْءَ إِذَا جُمِعَ بَيْنَ طَرَفَيْنِ وُعِيَ وَأُدْرِكَ.

ومنهُ: الشِّعْر المُرسَلُ، فإنَّه إذَا أُحِيطَ بمَا يدلُّ عليهِ ويُرْشِدُ إليه كَمُلَت منفعتُه، فهو الَّذي حَدا جامعَ هٰذِهِ النُّبذَةِ في هٰذِهِ الأوراقِ إلىٰ تَقديمِ أبياتٍ بينَ يَدَيْهَا وخَتْمِهَا ببيتٍ واحدٍ.

وسمَّىٰ ذَٰلِكَ كُلَّهُ: «**بَهْجَةَ الطُّلَب في آدابِ الطَّلب**».

وَالطُّلَبُ: جَمْعُ طُلْبَةٍ؛ وَهِيَ السَّفْرَةُ البَعِيدَةُ، فإنَّ منْ شعار العلمِ: الرِّحلَةُ فيهِ.

ومِن مباهجِ الارتحَالِ: التَّزَيُّنُ بالآدابِ، فمَنِ ارتحلَ في العلمِ مُتَزَيِّنًا بالأدبِ أدرك بُغْيَتَه.

وجَعَل النَّاظم هٰذَا الاسمَ لهَا مختومًا بقولِه: «**في آدابِ الطَّلب**»؛ لِأَنَّ آخِرَ شَطْرٍ منها هو قَوْلُ ناظِمِها: (فَافْهَمْ هَدَاكَ اللهُ آدَابَ الطَّلَبْ).

قالَ المصنِّف رحمه الله:

أَعْلَمْ بِأَنَّ الْعِلْمَ بِالتَّعَلُّمِ وَالْحِفْظِ وَالْإِتْقَانِ وَالتَّفَهُمِ

قال الشَّارح وفّقه الله:

من الأصول المُعِينةِ علىٰ حيازةِ العلمِ وجَمْعِهِ: التَّحلِّي بشِعارِ أهْلِ العلم في قولِهِمْ: (العِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ)؛ أيْ بطَلَبِه وابتغائِه، فإنَّ أحَدَنَا لَا يُولَد عالمًا، وإنَّما يجمع العلمَ إلىٰ نفسِه بطَلَبِه وإحصائِه والتماسِه، وسَعْيُهُ في ذَٰلِكَ يُسَمَّىٰ (تَعَلُّمًا).

فَإِنَّ (**التَّفَعُّلَ**) **فِي كَلَامِ العَرَبِ**: اسْمٌ لِمَا يُبْذَلُ فِيهِ كُلْفَةٌ؛ كـ(التَّعَلُّمِ، وَالتَّحَلُّمِ، وَالتَّكَلُّمِ)، فَإِنَّ الاتِّصاف بالعلمِ والحلمِ وحُسْنِ المنطقِ والكلامِ لا يَحصُل دُفْعةً واحدةً، وإنَّما يُكابِد المرءُ مشقَّةً حتَّىٰ يَصِلُ إلَىٰ مَطْلُوبُه منْ هٰذِهِ المذكوراتِ وغيرِهَا.

وَهٰذِهِ الجملةُ - (العِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ) - رُوِيَتْ فِي حَدِيثٍ مَرْفُوعٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وَلَا يَصِحُّ مِنْ طُرُقِهِ شَيْءٌ.

وَثَبَتَ مَوْقُوفًا عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَا يُولَدُ عَالِمًا، إِنَّمَا العِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ». رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي كِتَابِ «الزُّهْدِ»، وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ.

وَقول النَّاظِمِ: (وَالحِفْظِ وَالإِتْقَانِ وَالتَّفَهُمِ)؛ مِنْ عَطْفِ الخاصِّ علىٰ العامِّ؛ فالمذكوراتُ مِنْ مسالِكِ التَّعلُّمِ، فَحِيَازة العلم وجَمْعُه تَحصُل بسلوكِ سُبُل مُوصِلةٍ إليهِ، من جُملَتِها: الحِفْظُ، والإتقانُ، والتَّفهُّمُ.

والمراد بـ(**الإِتْقَانِ**): الإِحْكَامُ، **ومُتعلَّقُه** علىٰ الحقِيقةِ: التَّحَفُّظُ وَالتَّفَهُّمُ؛ بأن يكونَ الحفظُ مُتقنًا، والفَهم مُتقنًا، فمدارُ العلمِ عَلَىٰ التَّحَفُّظِ وَالتَّفَهُّمِ.

فَإِنَّ قُوَّةَ العِلْمِ مَبْنِيَّةٌ عَلَىٰ أَصْلَيْنِ:

- **أحدهما**: الحِفْظُ.
- **والآخر**: الفَهْمُ.

ذَكَرَهُ ابْنُ تَيْمِيَّةَ الحَفِيدُ، وَتُوجَدُ فِي كَلَامِ غَيْرِهِ مِنْ قُدَمَاءِ فَلَاسِفَةِ اليُونَانِ.

فمَنْ أراد أن يُحَصِّل العلم فإنَّه يَنَالُه بالحرصِ علَىٰ حِفْظِ ما يريدُه منهُ حِفْظًا مُحكَمًا مُتقنًا، وَيَقْرِنُ ذَٰلِكَ بتَفَهُّمِ معانِيهِ، فإنَّه لا ينْبُلُ في العلمِ بالغًا الغايةَ منه إلَّا مَنِ ارْتَوَىٰ مِن هاتين السَّابِلَتَينِ أكملَ الارتواءِ وأقوَاهُ.

ومَنْ ظَنَّ أنَّه يَنالُ العلمَ بواحدةٍ مِن هاتينِ القُوَّتَينِ دُونَ الأُخْرَىٰ؛ فهوَ لَا يعرفُ حقيقةَ العلمِ.

ومَنْ لمْ يَسِرْ فيهمَا سَيْرَ أهلِ العلمِ مِنْ ملاحظةِ الحفظِ في زمَنِهِ ووقتِهِ، وملاحظةِ الفهم في زمنِهِ ووقتِهِ؛ أَضَرَّتْ إِحْدَىٰ القُوَّتَيْنِ بِالأُخْرَىٰ.

وَقَدْ ذَكَرَ الوَشَلِيُّ فِي «الثَّنَاءِ الحَسَنِ» عَنْ بَعْضِ شُرَّاحِ «الرَّحَبِيَّة» - وَلَمْ يُسَمِّهِ -: أَنَّ مَنْ لَمْ يَرْعَ الحِفْظَ وَالفَهْمَ كَمَا يَنْبَغِي؛ أَضَرَّتْ إِحْدَىٰ القُوَّتَيْنِ بِالأُخْرَىٰ.

وَهٰذَا أَمْرٌ ظاهرٌ في النَّاس.

فإنَّ مِنَ النَّاس مَنْ يشتغِلُ بالحفظِ في غيرِ أوانِه وزمانِه؛ تقديمًا وتأخيرًا، اختيارًا واصطفَاءً، فيحصلُ له حِفْظٌ كثيرٍ، ويَثقُل فَهْمُه؛ لأنَّه لم يَقْرِنْهُ بالحال الَّتي ينبغِي أن يكونَ عليهَا منَ الفهمِ.

ويُقابلُه قومٌ آخَرُون يُقَعْقِعُونَ بِشِنْشِنَةِ الفهم فقط، فتجدُهم يُرسِلونَ خيالاتِهم في تَفَهُّم معانِي ما يريدونَ، فيُثقِلُونَ علَىٰ أذهانِهم؛ لأنَّهم لا يَستمِدُّون تحقيقَ تلكَ المعانِي من مخزونٍ محفوظٍ، فيقعونَ في صحراءَ بَلْقَع، يَضِيعُونَ فيها في تَيْهٍ.

فمَنْ أراد أن يَتَرَقَّىٰ في العلم، وينالَه، ويحصلُ له ما ذَكَره جماعةٌ من السَّلف: (العِلْمُ

بِالتَّعَلُّمِ)؛ فإنَّه ينبغي أن يُلاحِظ الحفظ والفَهْمَ سَيْرًا فيهِمَا بجادَّةِ أهل العلمِ، ممَّا يُرَقِّيه فيه أهلُ العلمِ العارفُونَ بِهِ.

ولن تُبْلَغ الغايةُ إلَّا بالسَّير وَفْقَ هٰذِهِ السَّابِلَةِ، فلا تَتَعَنَّ.

قالَ المصنِّف رحمه الله:

وَالْعِلْـمُ قَـدْ يُرْزَقُـهُ الصَّـغِيرُ ... فِي سِـنِّهِ وَيُحْـرَمُ الْكَبِـيرُ
فَإِنَّمَـا الْمَـرْءُ بِأَصْـغَرَيْهِ ... لَـيْسَ بِرِجْلَيْـهِ وَلَا يَدَيْـهِ
لِسَـانِهِ وَقَلْبِـهِ الْمُرَكَّـبْ ... فِي صَـدْرِهِ وَذَاكَ خَلْـقٌ عَجَّـبْ

قال الشَّارح وفّقه الله:

لـمَّـا كان التَّعلُّم سبيلًا يُنال به العلمُ - كمَـا ذَكَر النَّاظم فيمَـا سـلَفَ -؛ بَـيَّن هنَـا أنَّ العلمَ لَا يتوقَّف حصولُه علىٰ عُمُرٍ دونَ عُمُرٍ، فيُدركُه امرِئٌ فِي سِنٍّ، وَلا يُدركه آخَـرُ في سِنٍّ أُخْرَىٰ، بلِ الأمرُ كمَـا ذَكَر فِي قولِهِ:

وَالْعِلْـمُ قَـدْ يُرْزَقُـهُ الصَّـغِيرُ ... فِي سِـنِّهِ وَيُحْـرَمُ الْكَبِـيرُ

فرُبَّمـا يُوَفَّق الصَّغير إلىٰ العلم ويُحْرَمه الكبيرُ، بحسَب مَا يتهيَّأُ لهُ مـن العَـوْنِ عليـهِ، فيترشَّح للعلمِ حِفْظًا وفَهْمًـا معَ مبتدإِ عُمُرِهِ، ويـحصُل له مـنَ الظَّفَـرِ بمحفـوظٍ واسـعٍ ومفهومٍ نافعٍ، فيرجعُ عليه ذَٰلِكَ بحُسْن رزقِهِ في العلْمِ.

وربَّمـا يقابلُهُ مَنْ هُوَ متقَدِّمٌ عليهِ في السِّنِّ، لٰكِنْ لَـم يُصِـبْ مـن العلـم شـيئًا؛ لتَرْكِـه الاشتغالَ به، فتقدَّم الصَّغيرُ علَىٰ الكبيرُ؛ لاشتغالِ الصَّغيرِ بِهِ فِي المبادِئِ.

وإذا اشتغلَ الكبيرُ بالعلمِ فإنَّه يُمكنُه أن يُدركَـهُ؛ إذا تَجَـرَّدَ مـنَ الشَّـواغلِ والعوائـقِ والقواطعِ.

قَالَ البُخَارِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي «كِتَابِ العِلْمِ»: «وتَعَلَّمَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كِبَارًا». انتهىٰ كلامه.

فالتَّقدُّمُ في السِّنِّ لا يمنَـع نَيْـلَ العلـم حِفْظًـا ولا فَهْمًـا، وَلٰكِـنَّ أهـلَ العلـمِ لَهَجُـوا

بالـمبادرةِ إلَىٰ تحصيلِ العلم في مبتدإِ العُمُر؛ لِقِلَّةِ الشَّواغل، وقـوَّة الـدَّاعِي إلـىٰ طَلـب العلم في النَّفس.

فمَنْ تـمكَّن من كبار السِّنِّ مـن تخلِـيصِ نفسِـهِ مـنَ القَوَاطِـعِ الــمُشغِلَة، وَالعَوائـقِ الـمـانعةِ من العلمِ، وسَارَ فيه سَيْرًا حسنًا؛ فإنَّه يُدرك منه بُغيتَه.

ومَحلُّ العِلْمِ من العبد: قَلْبُهُ.

وآلَةُ بيانِ العلمِ: لسانُهُ.

فَالقَلْبُ وِعَاءُ العِلْمِ، وَاللِّسَانُ مِغْرَافٌ يَنْزَعُ منه.

ولـهَـٰذَا قال النَّاظم:

فَإِنَّمَـــا الْمَـــرْءُ بِأَصْـــغَرَيْهِ ... لَـــيْسَ بِرِجْلَيْـــهِ وَلَا يَدَيْـــهِ

لِسَـــانِهِ وَقَلْبِـــهِ الْمُرَكَّـــبْ ... فِي صَـــدْرِهِ وَذَاكَ خَلْـــقٌ عَجَّـــبْ

وسُمِّيَ القَلبُ واللِّسانُ: (الأَصْغَرَانِ)؛ لِضَآلَةِ حَجْمِهِمَـا، وَصِغَرِ قَدْرِهِمَا مِنَ البَـدَنِ، فَهُمَا بَضْعَتانِ صَغِيرَتَانِ مِنْ بَدَنِ الإِنْسَانِ.

وقولُه: (الْمَرْءُ بِأَصْغَرَيْهِ)؛ مَثَلٌ سَيَّارٌ؛ مَعْنَاهُ: أَنَّ الـمَرْءَ يَعْلُو الأُمُـورَ وَيَضْـبِطُهَا بِقَلْبِـهِ وَلِسَانِهِ؛ ذَكَرَهُ الزَّبِيدِيُّ فِي «تَاجِ العَرُوسِ».

وقولُه: (وَذَاكَ خَلْقٌ عَجَّبْ)؛ أيْ وقوعُ تلكَ الحالِ مِنَ الإنسانِ خَلْقٌ عَجِيبٌ، فالجُثَّةُ القائمةُ مِن لحمٍ وبَدَنٍ يَكمُلُ أَمْرُها أو ينقصُ قَدْرُهَا بِالنَّظرِ إلىٰ بَضعتينِ صَغيرتينِ مِنْهَا، وَهُمَا: القَلْبُ واللِّسَانُ، وَهٰذَا تَرْكِيبٌ عَجِيبٌ بَدِيعٌ.

فَإِنَّ الجَاري في حالِ الخَلْقِ: أن يكونَ الأكبَرُ مُتحكِّمًـا في الأصـغرِ، وقُلِـبَ هٰـذَا في خِلْقةِ أحدِنَا؛ فأصْغَرَاهُ مُتحكِّمـان فيهِ، فإنَّ تـمـامَ دينِ الإنسانِ، وكَمَـالَ عقلِهِ، وحُسْـنَ حالِه؛ يرجعانِ إلَىٰ قلبِهِ ولسانِه، معَ ضَآلَةِ حجْمِهِمَـا، وَصِغَرِ قَدْرِهِمَا.

وهٰذَا يدلُّ عَلَىٰ عظمة الخالقِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ إِذْ جعلَ الإنسانَ علىٰ هٰذِهِ الصُّورةِ البديعةِ العجيبةِ الَّتي رُدَّ فيهَا أَمْرُه كلُّه إِلَىٰ قلبِهِ ولسانِهِ.

وتحقيقُ الأمر: أنَّ المَرْءَ يُرَدُّ فِي بَاطِنِهِ وَظَاهِرِهِ إِلَىٰ قَلْبِهِ، وفيهِ: حديثُ النُّعْمَانْ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلُحَتْ صَلُحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ؛ أَلَا وَهِيَ القَلْبُ**».

قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّة الحَفِيدُ: «القَلْبُ مَلِكُ البَدَنِ، وَالأَعْضَاءُ جُنُودُهُ، فَإِذَا طَابَ المَلِكُ طَابَتْ جُنُودُهُ، وَإِذَا خَبُثَ المَلِكُ خَبُثَتْ جُنُودُهُ».

وإِنَّما جُعِل اللِّسان عليه حِجابًا، فَالقَلْبُ مَلِكُ بدنِك، ولسانُكَ حاجِبُه، فهوَ يغْرِفُ منهُ وَيَنْزَع عنه، فإذا طابَ المَلِكُ وكانَ صالحًا؛ فإنَّ الحَاجبَ - الوَزِيرَ دونَهُ - يَكونُ صَالحًا طيِّبًا، وَإِذَا خَبُثَ وفَسُد؛ ظَهَرَ الخُبْثُ والفَسَادُ علىٰ اللِّسان وبقيَّةِ الأركانِ.

قالَ المصنِّف رحمه الله:

وَالْعِلْـــمُ بِـــالْفَهْمِ وَبِالْمُـــذَاكَرَهْ وَالدَّرْسِ وَالْفِكْـــرَةِ وَالْمُنَـــاظَرَهْ

قال الشَّارح وفّقه الله:

ذكر النَّاظِمُ فِي هٰذَا البيتِ خمسةَ مواردَ من الـمواردِ الَّتي تُوصِلُ العلمَ إلـىٰ الـنَّفس، وتُذيقُ القلبَ حلاوتَه:

۞ **فَالـمَوْرِدُ الأَوَّلُ: الفَهْمُ**؛ وَهُوَ إِدْرَاكُ الـمَعَانِي الـمُرَادَة فِي الكَلَامِ.

وَالنَّافِعُ مِنَ الفَهْمِ: هُوَ الـمُتَلَقَّىٰ عَنِ الرَّاسِخِ فِي العِلْمِ.

فإنَّ مَنْ رَسَخ عِلمُه صارتِ الـمعانِي الَّتي يُبديـها صـحيحةً، فَـانتَفَعَ بـهَا مُتَلقِّيهَـا، وَقَوِيَتْ مَلَكَةُ فَهْمِهِ.

وإذَا كانَ مُزَعْزَعَ القَدَم في العلمِ، غيـرَ مُـتمَكِّنٍ منـه؛ بَـدَتْ تلـكَ الـمعاني مُشوَّشـةً، فتَلتبِسُ فِي نَفْس الـمتلَقِّي، وتُورِثُه عُسْـر الفهمِ.

۞ **وَالـمَوْرِدُ الثَّانِي: الـمُذَاكَرَةُ**؛ وَهِيَ مُرَاجَعَةُ مُتَلَقِّي العِلْمِ عِلْمَهُ مَعَ آخَرَ.

سُمِّيتْ (مُذَاكَرَةً)؛ لِأَنَّـهَا مُفَاعَلَةٌ بِالذِّكْر بينَ اثْنَينِ فَصَـاعِدًا، فـيجلسُ أحـدُهُمَا إِلَـىٰ الآخَرِ، ويتَجَاذَبَان القَوْلَ مُعِيدَيْنِ مَا سَبَقَ تَلَقِّيهِ عَنْ مُعَلِّمِهِمَـا.

فاسْمُ (المُذَاكَرَةِ) في كلامِ العرب يقع بين اثْنَينِ فأكثرَ.

والدَّارِجُ عَلَىٰ ألسنَةِ النَّاسِ مـمَّـا يسمُّونَهُ (مُـذَاكَرَةً)؛ اسـمهُ: (مُطَالَعَـةٌ)؛ فَـإِنَّ الَّـذي ينظـرُ في الكتـبِ وحـدَهُ يُسـمَّىٰ (مُطَالِعًـا)، سـواءً كـان مُتَحفِّظًـا أم مُتفهِّمًـا، واسـم (المُذَاكَرَةِ) لا يكونُ إلَّا بين اثْنَينِ فَصَاعِدًا يتَجَاذَبَانِ ذِكْرَ العلمِ بينهمَـا.

وَالنَّافِعُ مِنَ الـمُذَاكَرَةِ: هِيَ الوَاقِعَةُ مَعَ القَرِينِ الجَادِّ، الطَّامِحِ إِلَىٰ مَعَالِي الأُمُورِ.

۞ **وَالـمَوْرِدُ الثَّالِثُ: الدَّرْسُ**؛ وَهُوَ تَكْرَارُ العِلْمِ علَىٰ النَّفْسِ، وَإِعَادَتُهُ عَلَيْهَا.

فإنَّ اسمَ (الدَّرْسِ) مأخوذٌ من العَوْدِ والتَّكْرَارِ، فإعادةُ العلم بعدَ حِفْظِه أو بعدَ فَهْمه يُسمَّىٰ (دَرْسًا).

فمَنْ جَلَسَ بَعْدَ الفجرِ فحَفِظَ هٰذِهِ الأبيات حتَّىٰ أحْكَمَهَا، فلمَّا أرسَلَ اللَّيْلُ سِتَارَهُ، وبَزَغَتِ النُّجُومُ، وهَدَأَ صوتُ النَّاسِ؛ قَامَ فأخَذَ يُكرِّر هٰذِهِ الأبيات = ففِعْلُهُ يُسمَّىٰ (دَرْسًا).

وَكَذَا لَوْ كَان مُتعلِّقًا بمَفهومٍ تلقَّاه؛ كَأَنْ يكون قَرَأ ذَٰلِكَ الـمَحفوظَ عَلَىٰ شَيخٍ بَيَّنَ له معانيه، ثمَّ رجَع إلىٰ دارِه، فَإِنَّه إذا أعاد تَذَكُّرَ تلك الـمعاني الَّتي تلقَّاها وأَمَرَّها علىٰ نَفْسِه، يُسمَّىٰ هٰذَا (دَرْسًا).

والنَّافِعُ مِنَ الدَّرْسِ: هُوَ الكَائِنُ فِي وَقْتِ النَّشَاطِ وَالقُوَّةِ.

فمَنْ أرادَ أن ينتفعَ بدَرْسِه مُعيدًا له، فإنَّه ينبغي أن يتخيَّر أوقاتَ نَشَاطه وقوَّتِهِ.

۞ **وَالـمَوْرِدُ الرَّابِعُ: الفِكْرَةُ**؛ وَهِي تَحْقِيقُ النَّظَرِ فِيمَا يُبْتَغَىٰ مِنَ العِلْـمِ، بِـإِمْرَارِهِ عَلَـىٰ القَلْبِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، وَاسْتِخْرَاجِ مَا تَحْتَ الـمَبْنَىٰ مِنَ الـمَعْنَىٰ.

فإنَّ مَبَانِي الكَلَامِ خَزَائِنُ الـمَعَانِي؛ فتحقيقُ النَّظَر فيهَا وإجالتُه تُسمَّىٰ (فِكْرًا)، بأنْ تَتَطلَّب الوصولَ إلَىٰ مقصودٍ تُقَلِّب نَظَرك فيه حتَّىٰ تُدرِك معنًىٰ تلتمسُهُ فيما تُطلِق الفِكْرَ فيه.

والنَّافِعُ مِنَ الفِكْرِ فِي العِلْمِ: هُوَ مَا تَحَرَّكَ بِهِ الذِّهْنُ بَعْدَ تَـمَـامِ الفَهْـمِ وَاكْتِمَـالِ آلَـةِ العِلْمِ.

فَالفِكْرُ في العلمِ للوصولِ إلىٰ الـمعانِي الشَّـريفةِ مَحَلُّه فيما يُستَقْبَل منْ عُمُر مُتَلقِّيـهِ، فلَا يَحسُنُ الهُجُوم عليـه في الـمَبَادِي، أو عنـد الـمتوسِّطينَ، أو عنـدَ الـمنتهينَ قبـلَ امتلائِهِمْ منَ العلمِ، فإنَّ الفِكْرَ في العلمِ لا تَحْصُل منفعتُه إلَّا بعدَ تـمَـام فَهْم معانِيهِ، فإذَا

تَمَّ فَهْمُ الـمَعَانِي، ثمَّ اكتملتْ آلة العلمِ مِن تَلَقِّـي فنونِـه؛ كـانَ فِكْـرُ الــمرءِ فيـه حينئـذٍ كمَـالًا يُورِث كمـالًا، وَإن كان قبل ذَٰلِكَ كان خَبَالًا يُورِث خَبَالًا.

فمُلتمسُ العلمِ لا ينبغِي له أن يُجهِدَ ذِهْنَه بالفِكْرِ في الوصولِ إلىٰ الـمعانِي قبلَ تَمَـامِ فَهْمِهِ واكتمَـالِ آلتِهِ، لأَنَّه يُشغِلُ نَفْسَه بمَـا يَشُقُّ عليهَا؛ كَمَنْ يحمِل ثِقَـلًا لَا يَقـدِرُ بَدَنُـه عَلَىٰ رَفْعِه.

وَربَّمَـا أورَدَهُ الـمَهَالِكَ، فهو يُجرِي خاطرَهُ مُنقدحًا في أمورٍ لَا يَعي تـمـامَهَا.

فإنَّ مـمَّـا يسمعُهُ الـمرءُ فِي تعليلِ الأَحَاديثِ - مَثَلًا - أشياءَ فَكَّـر فيهَـا المتكلِّمـون بِها، فأرسلُوهَا علىٰ عَوَاهِنِهَا قَبْلَ تـمــام الفهـمِ واكتمــال آلـةِ العلـمِ، فصَـارَ تَعلـيلُهم ضِحْكَةً عِندَ العارفين بالعلمِ.

فإنِّي سمعتُ رَجُلًا يُعَلِّل حديثًا فِي الصَّحِيحِ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ لِأُمِّ سَـلَمَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: «**أَنَفِسْتِ؟**» - لَـمَّـا انْسَلَّتْ مِنْ فِرَاشِهِ -، فَقَالَ: هٰذَا الحَدِيثُ لَهُ عِلَّـةٌ، وَهِـيَ أَنَّ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لَمْ تَضَعْ إِحَدَاهُنَّ مَوْلُودًا، وَالنِّفَاسُ دَمٌ يَكُونُ بَعْدَ وِلَادَةٍ.

وَهٰذَا الـمَعْنَىٰ الَّذِي عَلَّلَ بِهِ مَعْنًىٰ سَاقِطٌ؛ لِأَنَّ أَصْـلَ (النِّفَـاسِ): حُصُـولُ التَّنْفِـيسِ، وَهُوَ لِلْمَرْأَةِ بِدَمٍ، فَيُسَمَّىٰ الحَيْضُ أَيْضًا (نِفَاسًا)، وَهُوَ الَّـذِي أَرَادَهُ النَّبِـيَّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بِقَوْلِهِ: «**أَنَفِسْتِ؟**».

وَهٰذَا الأمرُ الَّذي ذَكَرتُ خطورتَه صارَ شائعًا في النَّاس فِيما فُتِنُوا بِهِ من دَعْوَىٰ سهولَةِ الوُصُولِ إلىٰ الـمعلومةِ؛ فظنُّوا أنَّ سهولَةَ الوُصُولِ إلىٰ الـمعلومةِ تُـورِثُهُم قُـدرةً علـىٰ نُفُوذِ أفكارِهِم في معانِي العلم، وأنَّهم يُدرِكُونَ من حقائِقِه أشياءَ تجْري بِهَا خَـوَاطِرُهُمْ؛ كالـمسموعِ اليومَ في كثيرٍ مـمَّـا يُنْسَبُ إِلَىٰ تَدَبُّرِ القرآن، فإنَّه مـحضُ جَرَيَـان الخَـوَاطِرِ، وربَّما اشتَمَلَ عَلَىٰ مَعَانٍ فَاسِدَةٍ في الشَّرِيعةِ.

والـمَقْصُودُ: أنَّ مُريدَ النَّجاة عند الله، الرَّاغـبَ في حصـولِ كمـالِ العلـمِ؛ ينبغِـي أن يعرفَ أنَّ الفِكْرَ في العلم مَرتبةٌ تُدرَكُ بَعْدَ تَـمَـامِ الفَهْمِ وَاكْتِمَـالِ آلَةِ العِلْمِ.

۞ **وَالـمَوْرِدُ الخَامِسُ**: **الـمُنَاظَرَةُ**؛ وَهِيَ البَحْثُ فِي العِلْمِ مَعَ غَيْرِهِ؛ لِنُصْـرَةِ قَوْلٍ دُونَ آخَرَ، وَإِقَامَةِ الحُجَّةِ عَلَيْهِ.

وَالنَّافِعُ مِنَ الـمُنَاظَرَةِ: مَا كَانَ مَعَ ذِي عِلْمٍ لِإِرَادَةِ الحَقِّ.

فَالـمُنَاظَرَةُ النَّافِعَةُ تَجْمَعُ وَصْفَيْنِ:

۞ **أَحَدُهُمَا**: وُقُوعُهَا بَيْنَ مُتَّصِفَيْنِ بِالعِلْمِ الكَامِلِ؛ إِمَّا فِي نَفْسَيْهِمَـا، وَإِمَّـا فِـي تِلْـكَ الـمَسْأَلَةِ بِعَيْنِهَا.

۞ **وَالآخَرُ**: أَنْ يَكُونَ مُرَادُ كُلٍّ مِنْهُمَـا الوُصُولُ إِلَىٰ الحَقِّ.

قالَ المصنِّف رحمه الله:

فَـرُبَّ إِنْسَـانٍ يَنَـالُ الْحِفْظَـا ... ويُـورِدُ النَّـصَّ وَيَحْـكِي اللَّفْظَـا

وَمَـا لَهُ فِي غَـيْرِهِ نَصِـيبُ ... مِمَّـا حَـوَاهُ الْعَـالِمُ الْأَدِيـبُ

وَرُبَّ ذِي حِرْصٍ شَـدِيدِ الْحُبِّ ... لِلْعِلْـمِ وَالذِّكْـرِ بَلِيـدِ الْقَلْـبِ

مُعَجَّـزٍ فِي الْحِفْـظِ وَالرِّوَايَـهْ ... لَيْسَـتْ لَهُ عَمَّـنْ رَوَى حِكَايَـهْ

وَآخَـرٌ يُعْطَـى بِـلَا اجْتِهَـادِ ... حِفْظًا لِمَـا قَـدْ جَـاءَ فِي الْإِسْـنَادِ

يُفِيـدُهُ بِالْقَلْـبِ لَا بِنَـاظِرِهْ ... لَـيْسَ بِمُضْـطَرٍّ إِلَى قَمَـاطِرِهْ

قال الشَّارح وفّقه الله:

ذكر النَّاظِمُ في هٰذِهِ الأبياتِ أنَّ النَّاس يتفاوتُونَ في حُظوظِهِمْ مِن الحفظِ والفَهْمِ الَّذي ينالونَ بِهِ العلمَ.

فتَجِدُ فيهمْ مَنْ تكون له أهليَّةٌ في الفهم وقُدرةٌ عليه، فهو واعيةٌ دَرَّاكٌ للمعانِي.

وتجد منهمْ مَنْ يتقَاصَرُ عن هٰذِهِ الرُّتبَةِ من الفهمِ، فَمَا لَهُ فيه كبيرُ نصيبٍ، وَإن كانَ له حظٌّ من الحفظِ.

وأشار النَّاظم إلىٰ الثَّاني منهمَا بقوله:

فَـرُبَّ إِنْسَـانٍ يَنَـالُ الْحِفْظَـا ... ويُـورِدُ النَّـصَّ وَيَحْـكِي اللَّفْظَـا

وَمَـا لَهُ فِي غَـيْرِهِ نَصِـيبُ ... مِمَّـا حَـوَاهُ الْعَـالِمُ الْأَدِيـبُ

فالـمذكورُ في هٰذَيْنِ البيتينِ بالنِّسبة إلىٰ قوَّة الفهم هو ضعيفٌ لا يُعَدُّ من أربابِها.

وعُرِف مُقابِله بحالِه؛ فإنَّه إذا كانَ في النَّاس مَنْ يضْعُف فَهْمُه، فمُقابِلُه منهمْ: مَنْ يقوىٰ فَهْمُه.

وتجدُ فيهم أيضًا بالنِّسبة للحفظِ مَنْ يكونُ ضعيفَ الحفظِ مع محبَّتِه العلمَ ورغبتِه فيه.

وتجدُ منهمْ مَنْ هو قَوِيُّ الحفظِ، مُتمكِّنٌ منه، سهلٌ عليهِ.

فالنَّاس متفاوتون في الحفظِ والفهمِ علىٰ درجاتٍ ومَرَاتبَ مُتباينَةٍ.

وأشار النَّاظم إلىٰ مَرَاتبِ النَّاس في الحفظِ في قولِه:

وَرُبَّ ذِي حِرْصٍ شَدِيدِ الْحُبِّ ... لِلْعِلْمِ وَالذِّكْرِ بَلِيدِ الْقَلْبِ

مُعَجَّزٍ فِي الْحِفْظِ وَالرِّوَايَهْ ... لَيْسَتْ لَهُ عَمَّنْ رَوَى حِكَايَهْ

وَآخَرٌ يُعْطَى بِلَا اجْتِهَادِ ... حِفْظًا لِمَا قَدْ جَاءَ فِي الْإِسْنَادِ

يُفِيدُهُ بِالْقَلْبِ لَا بِنَاظِرِهْ ... لَيْسَ بِمُضْطَرٍّ إِلَى قَمَاطِرِهْ

فالأوَّل: كَليلُ الحفظِ ضَعِيفُه.

والثَّاني: قَوِيُّ الحفظِ حتَّىٰ تَتمكَّن المحفوظاتُ في قلبِه دونَ كبيرِ اجتهادٍ منه.

ومنهُ: حالُ عَبْدِ اللهِ بْنِ المُبَارَكِ؛ فَإِنَّهُ سُئِلَ: كَيْفَ تَحْفَظُ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ؟، فَقَالَ: «إِنَّمَا هُوَ إِذَا اشْتَهَيْتُ شَيْئًا حَفِظْتُهُ»؛ أيْ إذا وُجِد في قلبِي محبَّةٌ ورغبةٌ له، وَجَدَ طريقًا إلىٰ قلبِي، فتَمَكَّن منه ورَسَخ فيه، فصار عِلمُه حاضِرًا بقلبِه، فهو لا يحتاجُ إلىٰ النَّظر في الكتبِ المُشارِ إليها بقولِه: (لَيْسَ بِمُضْطَرٍّ إِلَى قَمَاطِرِهْ).

والقَمَاطِرُ: جَمْعُ قِمَطْرٍ؛ وَهُوَ وِعَاءٌ تُحْفَظُ فِيهِ الكُتُبُ، بِمَنْزِلَةِ الحَقِيبَةِ فِي وَقْتِنَا.

فالحافظُ المتمكِّن غيرُ مُفْتَقِرٍ إلىٰ الكتُبِ الموضوعَةِ في القَمَاطِرِ.

وكان الخليل بنُ أحمدَ يُنشِد بيتًا سَيَّارًا:

وَلَيْسَ عِلْمًا مَا حَوَىٰ القِمَطْرُ ... مَا العِلْمُ إِلَّا مَا حَوَاهُ الصَّدْرُ

قالَ المصنِّف رحمه الله:

فَالْتَمِسِ الْعِلْمَ وَأَجْمِلْ فِي الطَّلَبْ وَالْعِلْمُ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِالْأَدَبْ

قال الشَّارح وفّقه الله:

لَمَّا بَيَّن النَّاظِمُ أنَّ العلم بالتَّعلُّمِ، ثمَّ أتبَعَه بذِكْر خمسةِ مواردَ يُحَصَّل بِها العلمُ؛ أرشدَ إلىٰ ما تَنبَغِي ملاحظتُه في طَلَبِ العلم، فقَالَ: (فَالْتَمِسِ الْعِلْمَ وَأَجْمِلْ فِي الطَّلَبْ)؛ أي ابتغِ العلمَ وَاحْرِص علَىٰ تحصيلِه، سالكًا ما يجمُلُ منَ الطُّرق المُوصِلَةِ إليهِ.

فقوله: (وَأَجْمِلْ فِي الطَّلَبْ)؛ معنَاه: اسْلُكْ فيه طريقًا جميلًا حسنًا، بأنْ تَأْتيَه من وجهِهِ الَّذي يُؤْخَذ منهُ.

وقد تقدَّم فِي «تَعْظِيمِ العِلْمِ» وَ«خُلَاصَتِهِ» وَغيرِهِمَا بيانُ كثيرٍ مِنَ القولِ المتعلِّقِ بمَا يَجْمُل فِي طريقِ أَخْذ العلم، فمَنْ سلَكَها كَان أَخْذُه جَميلًا، ومَنْ عَدَل عنهَا إلىٰ غيرِهَا أَضَرَّ بنفسِهِ في العلمِ؛ لغَلَطِه فِي سلوك طريقِه.

ثمَّ ذَكَر أنَّ مِن مفاتيحِ حِيازةِ العلمِ: سلوكَ الأدَبِ، والتزامَ مُقتَضَاه؛ في النَّفْس والدَّرس، ومعَ الشَّيخ والزَّميل، فقال: (وَالْعِلْمُ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِالْأَدَبْ)، وَهُوَ فِي مَعنىٰ قولِ يُوسُفَ ابْنِ الحُسَيْنِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بِالأَدَبِ تَفْهَمُ العِلْمَ». رَوَاهُ الخَطِيبُ البَغْدَادِيُّ فِي «اقْتِضَاءِ العِلْمِ العَمَلَ».

وَالجُمْلَةُ المَذْكُورَةُ لَهَا مُتَعَلَّقَانِ:

- **أَحَدُهُمَا:** الهِبَةُ الإِلٰهِيَّةُ.
- **وَالآخَرُ:** المِنْحَةُ البَشَرِيَّةُ.

فَأَمَّا **الهِبَةُ الإِلٰهِيَّةُ**: فإنَّ اللهَ يَـهَبُ العِلْمَ لـمَنْ كَانَ مُتَأَدِّبًا، فَإِنَّ العِلْمَ ميرَاثُ النُّبُوَّةِ، وَإِنَّ اللهَ لَا يَجْعَلُ مِنْ أَنْوَارِ النُّبُوَّةِ فِي قُلُوبِ قَلِيلِي الأَدَبِ، ولو قُدِّرَ وجـودُ شـيءٍ مـن العلـمِ عندَ قليلِ أدبٍ، فهوَ ليسَ العلمَ الـممدوحَ شـرعًا.

فالعلمُ الـممدوحُ شـرعًا: هو النَّافع، المُقَرِّب إلـىٰ اللهِ، الحامـلُ للعبـد علـىٰ التـزام شريعتِهِ.

وأَمَّا الـمِنْحَةُ البَشَـرِيَّةُ: فَـإِنَّ الـمُعَلِّمِينَ يَتَعَاهَـدُونَ الـمُتَأَدِّبِينَ؛ فَهُـوَ يَبْـذُلُ عِلْمَـهُ لِلْمُؤَدَّبِ، وَيَمْنَعُ قَلِيلَ الأَدَبِ مِنْهُ.

فَإِنَّ العَاقل مِنَ الـمُعَلِّمِينَ يعلم أنَّ العلمَ خزانَةٌ، وأنَّه أمينٌ عليهَا، فمِنْ صِدْقِ الأمانـةِ أنْ يتحرَّىٰ مَنْ له حقٌّ فِي تِلْكَ الخِزَانَةِ، ولا حقَّ في العلم إلَّا لـمَنْ تأدَّب بآدابِه.

فإنَّ الَّذين لا يتأدَّبون بآدابِ العلمِ معَ اللهِ، ومعَ رسولِهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ومع أئمَّة أهلِ العلمِ، ومع شيوخِهِم، ومعَ أقرانِهم، ومعَ مجالسِ العلمِ وأهلِه؛ ليسَ لهم حـقٌّ في تلـكَ الخزانةِ؛ فإنَّ تلكَ الخزانَةَ فيها العلـمُ الـموروثُ عـن النَّبِـيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، والأمـينُ الصَّادقُ لا يجعلُ تلكَ الجواهِرَ والَّلآلِئَ إلَّا عندَ مَنْ لَهُ حقٌّ فيها.

وأولئكَ الَّذين لهم حقٌّ: همُ الـملتزمونَ بشـروطِهَا من الآدابِ الشَّـرعيَّةِ، والأحكام الـمَرْعِيَّةِ، فإذا وُجِدَت فيهمْ كَانَ حقيقًا بحامِلِ العلمِ أن يبذلَـهُ لهُـم، وإذَا سُـلِبَتْ منـهُم كانَ حقيقًا بصاحبِ العلم أن يمنَعَه منهُم.

وَٱعْتَبِر هٰذَا فِي أخبارٍ مِن أحوالِ مَـنْ مضَـىٰ؛ فـإِنَّ عَبْـدَ الـرَّحْـمَنِ بْـنَ أَبِـي حَـاتِمٍ وَأَصْحَابَهُ لَمَّـا قَصَدُوا مِصْـرَ لِسَمَـاعِ الحَدِيثِ عَلَىٰ الشُّيُوخِ، وَضَـاقَ بِهِـمْ زَمَـنُهُمْ عَـنِ السَّمَـاعِ عَلَىٰ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْلَمَةَ بْنِ قَعْنَبٍ القَعْنَبِيِّ؛ كَانَ يَأْتِيهِمْ بَعْدَ العِشَاءِ، فَيَقْرَأُ عَلَيْهِمْ كِتَابَ «الـمُوَطَّأِ» الَّذِي يَرْوِيهِ عَنِ الإِمَامِ مَالِكٍ؛ لِأَنَّـهُ رَآهُـمْ أَهْـلَ أَدَبٍ، يَتَحَـرَّوْنَ العِلْـمَ

وَيَلْتَزِمُونَ شُرُوطَهُ، فَحَمَلَ عَلَىٰ نَفْسِهِ فِي حَمْلِ العِلْمِ إِلَيْهِمِ؛ لِأَنَّهُمْ يَسْتَحِقُّونَهُ وَهُمْ مِنْ أَهْلِهِ.

وَفِي أَخْبَارِ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ؛ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «إِنِّي لَأَحْرِمُ الرَّجُلَ الفَائِدَةِ لِمَا أَرَىٰ مِنْ حَالِ جَلِيسِهِ»، فَهو يلاحظ أنَّ ملتمسَ العلم له صُحبةٌ لا تصلُحُ فيهِ، فيمنَعُه العلمَ؛ لأنَّه يخافُ أن تُفسدَه تلكَ الصُّحبةُ فيُجعَلُ العلمُ عندَ مَنْ لَا يستحقُّهُ.

قالَ المصنِّف رحمه الله:

الْأَدَبُ النَّـافِعُ حُسْـنُ الصَّـمْتِ ... فَفِي كَثِيرِ الْقَـوْلِ بَعْـضُ الْمَقْـتِ

فَكُنْ لِحُسْنِ الصَّمْتِ مَا حَيِيتَـا ... مُقَارِنًـا تُحْمَـدُ مَـا بَقِيتَـا

قال الشَّارح وفّقه الله:

لـمَّـا قرَّرَ النَّاظِمُ أنَّ العلم لا يحصـلُ إلَّا بـالأدبِ، شَـرَعَ يـذكُرُ أنواعًـا مـنَ الأدبِ ووجوهًا منه، مُقَدِّمًا (حُسْن الصَّمْتِ)؛ أيْ الصَّمتَ الحَسَنَ، بالإمساكِ عمَّـا لا يُحتَـاجُ إليهِ من الكلامِ.

ويتأكَّد الصَّمت إذا تحقَّقت مَضَـرَّةُ الكلامِ، أو لم تتبيَّنْ منفعتُه ولا مَضَـرَّتُه.

فَالكَلَامُ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ:

- **أَحَدُهَا**: كَلَامٌ بَيِّنٌ الـمَنْفَعَةِ.
- **وَثَانِيهَا**: كَلَامٌ بَيِّنٌ الـمَضَرَّةِ.
- **وَثَالِثُهَا**: كَلَامٌ لَمْ يَتَبَيَّنْ نَفْعُهُ مِنْ ضَـرَرِهِ.

والعبدُ مأمورٌ في القسميْنِ الأخيرينِ بِالصَّمتِ؛ لِـمَـا في «الصَّـحيحينِ» مِـن حـديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مَنْ كَانَ يُـؤْمِنُ بِـاللهِ وَاليَـوْمِ الآخِـرِ؛ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**»؛ فالكلامُ الـمأمورُ به هو مَا كـانَ خيـرًا - أي بَـيِّنَ الـمنفعة -، وَمَا عَدَاه - مـمَّـا يكون بَيِّنَ الـمضـرَّةِ، أو لم تتحقَّق منفعتُه مـن مضـرَّتِهِ - فَـإنَّ العَبْـدَ مأمورٌ بالإمساكِ عنه، وأن يَخْزِنَ لسانَه ويحفظَهُ، مـُمتثلًا ما أرشدَ إليه النَّاظم بقوله:

فَكُنْ لِحُسْنِ الصَّمْتِ مَا حَيِيتَـا ... مُقَارِنًـا تُحْمَـدُ مَـا بَقِيتَـا

أيْ كُن خازنًا لِلَسَانك، حافظًا له، مُـمسِكًا عمَّـا لا خيرَ فيهِ من الكلَامِ، فإنَّـك تَحْمـدُ عاقبة ذَٰلِكَ فِي الدُّنيَا والآخِرَةِ، ويَبقَىٰ ذِكْرُكَ بِالخيرِ في الحياةِ وفِي الـمَمَـاتِ مَـا بقـيَ خَبرُكَ.

وَهٰذَا الأمْرُ هو مِنْ أكثَرِ مواردِ العَطَبِ الَّتِـي تَفسُـدُ بِهَـا أحـوالَ الخلـقِ، إذا أرسـلُوا أَلسِنَتُهُم فِي ما لا ينفعُهُم، أوْ في ما هو بَيِّنُ الضَّـرَرِ، أو مـمَّـا لَا يَتَبيَّنُ نَفْعُه مـنْ ضَـرِرِه؛ فإنَّ هٰذَا يرجِع عَليهم بفسادِ قلوبهم.

وقد ذكَرَ ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في غيرِ كتابٍ أبوابًا من مُفسِدات القلوبِ، فَلَهَـج بواحـدٍ منهَا وَهُوَ (كَثرة الكلَام)، فإنَّ مَنْ كَثُرَ كلامُه كَثُرَ خطؤُه، فوقَعَ فِيمـا يضـرُّ، أو وَقَعَ فيمـا لا يتبيَّن منفعتُه من ضـرَرِه، فيرجعُ ذَٰلِكَ عليْهِ بفسَادِ قلبِهِ.

وحَبْسُ اللِّسانِ وخَزْنُه من الرِّياضَاتِ النَّافِعَةِ فِي تـهذيبِ النَّفْسِ وَإِصْلَاح الأخـلاقِ، فينبغي أن يُعَوِّد أحدُنَا نَفْسَه خَزْنَ لسانِه؛ بأن يتقلَّلَ من الكلَامِ، وإذَا جَلَسَ في موضعٍ فيهِ غيرُه مِـمَّنْ هو أكبرُ منه؛ أمسَكَ ولم يتكلَّمْ، وإن كانَ يُشَارُ إليهِ بالعلمِ أكثرَ منهُ، ممَّنْ هو في أقرانِه، فإنَّ رعَايةَ هٰذَا مـمَّـا ينتَفِع بهِ العبدُ في صلَاحِ قلبِهِ وحُسْنِ دينِه.

وإذا كَثُرَ هَذْرُ الـمرْءِ وجَرَيَانُ لِسَانِهِ بين النَّاس، وقعَ في أشياءَ تُفسِدُ دينَه ودنيَاهُ.

وفِي أَخْبارِ مُوَرِّقٍ العِجْلِيِّ أَنَّهُ قَالَ: «جَاهَدْتُ نَفْسِـي عَشْـرَ سِنِينَ فِي تَعَلُّمِ الصَّمْتِ».

انتهىٰ كلامه.

ووجْهُ الـمُجَاهَدَةِ: أنَّهُ توجدُ عندَه شَهْوَةُ الكَلَامِ، فَيَحْبِسُ لسانَه.

فإذا أردتَ أن ترتَاضَ رياضَة حِفْظ اللِّسان، فاعقلْ هٰذَا الـمعنىٰ، فإذَا اشتاقت نفسُكَ للكلامِ، وارتفعتْ إليكَ الأبصارُ، وأشارتْ إليكَ الأصابعُ؛ فأَلْجِمْ لسَانَكَ مَا استطعتَ، إمَّا بالإمساكِ عنِ الكلامِ تارةً، أو بالتَّقلُّلِ منه تارةً أخـرَىٰ، فـإذا أُلْجِئْـتَ إلَـىٰ الحَـديث

فأَقِلَّ الكلامَ، فإنَّ قِلَّة الكَلَام يكثُرُ بهَا دينُ المرء وعقله، كمَـا أنَّ كثرةَ الكلَامِ يَضْعفُ بها دينُ الـمرء وعقلُه.

وَاعْتَبِر هٰذَا في أحوالِ النَّاس تجدْ صِدْقَهُ.

قالَ المصنِّف رحمه الله:

وَإِنْ بَـدَتْ بَـيْنَ أُنَـاسٍ مَسْـأَلَهْ ... مَعْرُوفَـةٌ فِي الْعِلْـمِ أَوْ مُفْتَعَلَـهْ

فَلَا تَكُـنْ إِلَى الْجَـوَابِ سَـابِقَا ... حَـتَّى تَـرَى غَـيْرَكَ فِيـهِ نَاطِقَـا

فَكَمْ رَأَيْتُ مِنْ عَجُـولٍ سَـابِقِ ... مِـنْ غَـيْرِ فَهْـمٍ بِالْخَطَـاءِ نَـاطِقِ

أَزْرَى بِـهِ ذَلِـكَ فِي الْمَجَـالِسِ ... بَـيْنَ ذَوِي الْأَلْبَـابِ وَالتَّنَـافُسِ

الصَّمْتُ فَاعْلَمْ بِكَ حَقًّـا أَزْيَـنُ ... إِنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَكَ عِلْـمٌ مُـتْقَنُ

قال الشَّارح وفّقه الله:

ذَكَرَ النَّاظِمُ أنَّ من موارِدِ **الصَّمتِ الحَسَن**: الإمساكَ عن الكلامِ فِيمَـا يجري ذِكْرُه من مسـائلِ العلـمِ، مـمَّـا شُـهِرَ منـهُ في الـمسائلِ الـمقرَّرَةِ الحاصِلَةِ، أو فِـي الـمسائلِ الـمتجدِّدةِ النَّازلَةِ.

فإنَّ الصَّمتَ الحَسَنَ: أن يُمسكَ الـمرءُ عن الجوابِ فيه حتَّىٰ يرىٰ غيـرَه مـمَّنْ هُـم أكملُ عِلمًـا، وأكبرُ سِنًّا، وأتمُّ عَقْـلًا قـد تكلَّمـوا فيـه، فيـتكلَّمُ حينئـذٍ بمثـلِ كَلَامِهِـم، ويُحاذي مقالَهُم، ويبني علىٰ أصولِهِم، ويُوَسِّع النَّظر فيما قرَّرُوهُ.

فمِنْ حُسن صمْتِ أحدِنا: ألَّا يزاحم أهلَ العلمِ القائمينَ بِهِ في ما هُمْ به أَوْلَىٰ.

وإذا أرادَ أن يتكلَّمَ لم يتقدَّمْ بين أيديـهم، فإذَا تكلَّمُوا وكَانَ قَدْ زَوَّر في نفسِه أن يتكلَّمَ بمثلِ كلَامِهِمْ تكلَّمَ حِينئذٍ بعدَ كَلَامهمْ، وإنْ زَوَّرَ في نفسِه خلافَ كلامِهم أمسَكَ حينئـذٍ عن الكلامِ؛ فإنَّه خيرٌ لَهُ في دينِه وعقلِه.

فلو قُدِّرَ أنَّ أَمْرًا منَ الأمورِ جَرَىٰ بين النَّاس، فَالْزَمِ الصَّمتَ الحَسَنَ؛ وإن كانَ النَّـاسُ ينتظرونَ منكَ كلمةً.

فإذَا تَقَدَّمَ بينَ يديْكَ أَحَدٌ فتَكَلَّمَ واحتِيجَ إلىٰ كلامِكَ - نُصْـرةً للحقِّ وتقويةً لهُ وكنتَ تريدُ الكلامَ بمثلِ ما تكلَّم به -، فتكلَّم بعدَهُ.

وإن عَرَضَ لكَ من الـمعَانِي مَا تَرَىٰ به أنَّ الرَّاجح عندكَ هو خلافُ ما قَرَّره وكانَ هو منَ الـمَأْمُونينَ في العلمِ، الـمنظورِ إليهِمْ عندَ الخَلْق؛ فلا تُزاحمْه، وَالْزَم ما عندَكَ من العلمِ، حتَّىٰ إذا احتيجَ إليكَ فَحِينئذٍ قُمْ في هٰذَا الـمقَامِ.

فإنَّ مَنْ رَعَىٰ هٰذَا الأدَبَ منَ العلمِ في نَفْسِه؛ حَفِظَ دينَه وعقلَه، ومَنْ زَاحَم أَهْلَ العلمِ؛ أَزْرَىٰ علىٰ دينِه وعقلِه.

وَذكَر النَّاظِمُ منْ مَزَالقِ العَجَلَة في العلمِ والـمسابقَةِ بالقولِ فيه: الوقوعَ في الخطإِ الَّذي يُزرِي بصاحبِه عندَ الـمتنَافِسِينَ في معالِي الأمورِ، فإنَّ الـمُسارعَةَ والـمُسابقَةَ إلىٰ القولِ تَجُرُّ إلَىٰ الوقوعِ فِي الخطَإِ، فيكونُ ذٰلِكَ رَزِيَّةً تعيبُ الـمتكلِّم بِهَا.

وإذا كانتِ الحالُ كذٰلكَ؛ فالأمرُ النَّافع سلوكُه هو الـمذكورُ في قولِ الـمصنِّف:

الصَّمْتُ فَاعْلمْ بِكَ حَقًّا أَزْيَنُ إِنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَكَ عِلْمٌ مُتْقَنُ

فالصَّمتُ عندَ بُدُوِّ القولِ في مسائِلِ العلمِ أَزْيَنُ بأهلِهِ إن لم يكنْ عندَ الـمتكلِّمِ علمٌ مُتقَنٌ - أيْ علمٌ رَاسِخٌ.

قالَ المصنِّف رحمه الله:

وَقُــلْ إِذَا أَعْيَــاكَ ذَاكَ الْأَمْــرُ مَــا لِي بِمَــا تَسْــأَلُ عَنْــهُ خُــبْرُ

فَذَاكَ شَطْرُ الْعِلْمِ عِنْـدَ الْعُلَمَـا كَذَاكَ مَا زَالَـتْ تَقُـولُ الْحُكَمَـا

قال الشَّارح وفّقه الله:

ذكر النَّاظِمُ الجوابَ النَّافعَ فِي الـمسائلِ الَّتي يَعْزُبُ عِلم أحدِنَا عنهَا، وَهُوَ قـولُ: (لَا أَدْرِي)، الـمُشَارُ إليه بقولِه: (مَا لِي بِمَا تَسْأَلُ عَنْهُ خُبْرُ).

فإذا سُئِل الـمرءُ عن شيءٍ لا يعلمُه، كانَ الجـوابُ النَّـافعُ هـو أنْ يصـدَعَ بقـولِ: (لَا أَدْرِي).

ولِـجلَالةِ هٰذِهِ الكلمةِ صارتْ نِصْفَ العلمِ، كَمـا قَالَ:

فَذَاكَ شَطْرُ الْعِلْمِ عِنْـدَ الْعُلَمَـا كَذَاكَ مَا زَالَـتْ تَقُـولُ الْحُكَمَـا

فمِنَ الشَّائِعِ قولُهُمْ: «لَا أَدْرِي؛ نِصْفُ العِلْمِ».

وأقدمُ مَنْ أُثِرَت عنهُ هٰذِهِ الكَلِمَةُ هُوَ عَامِرُ بْنُ شَرَاحِيلَ الشَّعْبِيُّ، أَحَـدُ التَّـابِعِينَ. رَوَاهُ الدَّارِمِيُّ وَغَيْرُهُ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

نَعَمْ؛ وقعَ في كلَام أَبِي عُمَـرَ ابْـنِ عَبْـدِ البَـرِّ فِـي «جَـامِعِ بَيَـانِ العِلْـمِ وَفَضْـلِهِ» وَفِـي «الانْتِقَاءِ»؛ أَنَّهُ قَالَ: (وَصَحَّ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّهُ قَالَ: «لَا أَدْرِي؛ نِصْفُ العِلْمِ»).

وَهٰذِهِ الكلمةُ لَمْ تُوجَدْ مَرويَّةً عن أَبِي الدَّرْدَاءِ فِي مَا فِي أَيْدِينَا منَ التَّـآليف، فأخشـىٰ أن يكونَ وَهَمًا.

فإنْ صَحَّ أنَّها رُوِيَتْ عنه؛ فأبو الـدَّرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أقـدَمُ مـن الشَّـعْبِيِّ، فهـو صـحابيٌّ

وَالشَّعبيُّ تابعيٌّ، لٰكِنَّ المرويَّ بإسنادِهِ في الكتبِ الَّتي اتَّصلتْ بنَا هوَ مرويٌّ عن الشَّعْبِيِّ عند الدَّارِمِيِّ وَغَيْرِهِ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

وَوَجْهُ كونِهَا نصفَ العلمِ: أنَّ العلمَ مقسومٌ بينَ (أَدْرِي) وَ(لَا أَدْرِي)؛ فَأَحدُهما نصفُ الآخر؛ ذَكَرَه يَحْيَىٰ بنُ آدَمَ فِيمَا رَوَاهُ عَنْهُ ابْنُ نَصْرٍ فِي «تَعْظِيمِ قَدْرِ الصَّلَاةِ».

فالعلمُ بينَ شيءٍ يُدرَىٰ وشيءٍ لا يُدرَىٰ، فالَّذي يُدرَىٰ يَتكلَّم بهِ دارِيهِ بمَا يعرفُه، والَّذي لا يُدرَىٰ يُمسِكُ عنهُ المسْئُولُ فيقول: (لَا أَدْرِي).

ومِنْ لَطِيفِ العلْمِ: أَنَّ سَعِيدَ بْنَ عَبْدِ العَزِيزِ - أَحَدِ عُلَمَاءِ أَتْبَاعِ التَّابِعِينَ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ - كَانَ يَقُولُ: «لَا أَدْرِي لِمَ (لَا أَدْرِي) نِصْفُ العِلْمِ». رَوَاهُ عَنْهُ أَبُو زُرْعَةَ الدِّمَشْقِيُّ فِي «تَارِيخِهِ».

وَكَشْفُ مَا غَمُض عليهِ: هوَ المعنىٰ المتقدِّم الَّذي ذكره يحيىٰ بنُ آدمَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالىٰ.

وقدْ صَارَ هٰذَا الأصلُ - (لَا أَدْرِي) - أَصْلًا راسخًا في العلمِ عندَ أهلِه؛ أنَّ مَنْ سُئلَ عن شيءٍ منهُ لم يعلمْه فإنَّ الوصيَّة النَّافِعَةَ فِي حَقِّه أن يلزمَ قَوْلَ (لَا أَدْرِي)، حتَّىٰ صارَ أهلُ العلمِ والحِكمةِ يُوصِي بعضُهم بعضًا بلزومِ هٰذِهِ الكلمةِ.

وقد أشرتُ إلىٰ هٰذَا المعنَىٰ في أبيَاتٍ؛ قلتُ فيها:

وَقَوْلُ (لَا أَعْلَمُ) عِنْدَ الْعُقَلَا ... عُدَّ فِي الْعِلْمِ ونِصْفًا جُعِلَا
وفَقْدُهَا مِنَ اللِّسَانِ عَابُوا ... مَقَاتِلُ الْمَرْءِ بِهِ تُصَابُ
وَيَنْبَغِي لِعَالِمٍ أَنْ يُورِثَا ... أَصْحَابَهُ مَقَالَهَا مَا حَدَّثَا
لأَنَّهَا رَافِعَةٌ وَكَمْ قَضَىٰ ... بِحُكْمِهَا مِنَ الْأَنَامِ مُرْتَضَىٰ
وَغَيْرُهُ أَوْلَىٰ بِهَا وَأَجْدَرُ ... وَمَنْ يُضِيعُ رُشْدَهُ لَا يُنْصَرُ
وَآنِفٌ مِنْ قَوْلِهَا رَقِيعُ ... وَدِينُهُ فِي نَفْسِهِ وَضِيعُ

فَالْهَجْ بِهَا هُدِيتَ مَا اسْتَطَعْتَا وَالْزَمْ لَهَا فَنِعْمَ مَا اتَّخَذْتَا

قالَ المصنِّف رحمه الله:

إِيَّاكَ وَالْعُجْبَ بِفَضْلِ رَأْيِكَا وَٱحْذَرْ جَوَابَ الْقَوْلِ مِنْ خِطَابِكَا

كَمْ مِنْ جَوَابٍ أَعْقَبَ النَّدَامَهْ فَاغْتَنِمِ الصَّمْتَ مَعَ السَّلَامَهْ

قال الشَّارح وفّقه الله:

حَذَّر النَّاظِمُ فِي هٰذَيْنِ البَيْتَيْنِ مِن بَلِيَّتَيْن تكتنفَانِ المتكلِّم في العلمِ:

۞ **فالبَلِيَّةُ الأُولَىٰ**: مُداخَلَةُ العُجْبِ النَّفْسَ، وَتَسَلُّلُهُ إليهَا، فيَرَىٰ الـمُتكَلِّمُ فِي العلمْ لنَفسِه عَلَىٰ غيرِه فَضْلًا، ثمَّ يطلبُ لها قَدْرًا ووَصْلًا.

والعُجْبُ هُوَ النَّظَرُ إِلَىٰ النَّفْسِ بِعَيْنِ الإِجْلَالِ وَالتَّعْظِيمِ.

فتجد مِن النَّاس مَنْ ينتسبُ إلىٰ العلمِ ويُعَدُّ من أهلِه، وتعتريهِ هٰذِهِ البليَّةُ، فيُعجَب بنفسِه، ناظرًا إليها بِعَيْنِ الإِجْلَالِ وَالتَّعْظِيمِ، فهوَ يرىٰ أنَّ له من الكمالِ ما ليسَ لغيرِهِ، وأنَّ عندَه منَ الفضْلِ تَحْصيلًا وبيانًا مَا ليسَ عندَ سِوَاهُ، فَيزْهُو بنفسِه علَىٰ الخَلْقِ، وَهي منْ أعْظَمِ الغَوَائِلِ الـمُفسِدةِ للمرءِ فِي علمٍ أو غيرِه؛ لأنَّ العبدَ مأمورٌ أن ينظرَ إلىٰ نفسِه بعين النَّقص، مُجتهدًا في القيام بحقِّ الله.

ومنه: حالُه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في قيامِه اللَّيلَ حتَّىٰ تتفطَّر قدمَاهُ، فتقول له عائشةُ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ إِنَّ اللهَ غَفَرَ لَكَ مَا تقدَّم من ذنبِكَ ومَا تأخَّر!، فيقول: «**يَا عَائِشَةُ؛ أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا**»؛ فهو لا يرىٰ أنَّ ما له من حُسْنِ عبادةِ ربِّه شيئًا، وأنَّ الله حقيقٌ بدوام شُكْرِه، وأنَّه مهما أتىٰ مِن عبادةِ الله وتعظيمِه فإنَّ حقَّ الله أعظمُ.

فالمرءُ مأمورٌ أن ينظرَ إلىٰ نَفسِه بعينِ الإزراءِ والعيبِ، وأن يقمَعَ طُغيانَ العُجبِ

منها، فإنَّه إذا استولَىٰ علَىٰ قلبِ العبد أفسدَه.

فالمرءُ إذا أعجبتْه نَفْسُه في عبادةٍ أو علمٍ أو غيرهمَا، عَلِقَ بقلبِه مِنْجَنِيقٌ ربَّما جَرَّه إلىٰ مهاوِي الرَّدَىٰ، وَلَا سبيلَ إلىٰ الخَلَاص منه إلَّا بملاحظة أنَّ **النِّعْمَةَ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا لَمْ تَكْتَسِبْهَا بِقِوَاكَ، وَلٰكِنَّ اللهَ هَدَاكَ.**

فإذَا أعجبَك أنَّك جالسٌ في حِلَق العلم، معدودٌ فِي طُلَّابه؛ فاعلم أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ له الفضلُ الأعظمُ عليكَ، فهو الَّذي هَدَاك إلىٰ ذَٰلِكَ، وإلَّا لَكُنْتَ كغيرك مِمَّنْ تنظرُ إليهم بعينِ النَّقص مِمَّنْ يُخالطونَ المعاصي أو يُضَيِّعُونَ أوقَاتُهُم فيمَا لا ينفعُهم.

۞ **والبَلِيَّةُ الثَّانية**: ابتداءُ القولِ بشيءٍ لم يتكلَّم به أحدٌ قبلَكَ، فيكونُ إنشاؤُه من مُبتكراتِ خيالِك، ومُبتدَعاتِ أفكارِكَ.

ومَحلُّ الذَّمِّ: فيمَا يُحتَاج إليه من العلمِ المشهورِ، الَّذِي تكلَّم فيهِ أهلُ العلمِ طبقَةً بعد طَبقَةٍ.

فالعدولُ عمَّا قالُوا، وإبداءُ سِواه؛ ممَّا يُعَابُ به المرءُ؛ لأنَّ العادةَ الجاريةَ أن يكونَ هٰذَا الَّذي أبدَاهُ غيرَ مبنيٍّ علَىٰ أصلٍ وثيقٍ، وَلا مَسبوقٍ بعالمٍ عتيقٍ، فهو يستحسنُ شيئًا ثمَّ يتكلَّم به، فمتىٰ وُجِدَت تلك الحالُ مِنَ العبدِ فإنَّها بَلِيَّةٌ.

[مسألةٌ]: لو قالَ إنسانٌ: نحنُ سَمعنَاكَ تقولُ: **الصَّلَاةُ** هيَ الحُنُوُّ وَالعَطفُ، وَنحن نحضرُ الدُّروسَ، ونقرأُ في الكتُبِ: (**الصَّلَاةُ** هِيَ الدُّعَاءُ)، فَأنتَ واقعٌ في هٰذِهِ البليَّةِ!

[الجواب]: نحنُ نُحِبُّ النَّاصحَ الصَّادقَ الَّذِي يَنصحنَا، فإنَّنا بشرٌ غير معصومين.

والجوابُ: أنَّ هٰذَا القولَ الَّذي ذكرتُه مُتَّصفٌ بوصفينِ:

أحدهما: أنَّه مبنيٌّ علَىٰ أصلٍ وثيقٍ؛ فإنَّ اسم (الصَّلاة) في كلامِ العربِ يقعُ علىٰ هٰذَا.

والآخر: أنَّ هٰذَا القولَ الَّذي ذكرتُه لكَ قدْ سُبِقْتُ بهِ من محقِّقِينَ لِلْعلمِ؛ منهم:

السُّهَيْلِيُّ، وابن القيِّم، وابنُ هشامٍ، والدَّمَنْهُورِيُّ، في آخرينَ.

وقد زَيَّفَ ابن القيِّم دعوىٰ أنَّ (الصَّلَاةَ هِيَ الدُّعَاءُ) فِي «بدائعِ الفوائدِ» مِن أربعةِ وجوهٍ.

فكونُك لا تعلمُ هٰذَا؛ لا يعْني أنَّ هٰذَا القولَ الَّذي سمعتَه قولٌ جديدٌ في العلمِ، وإنَّما هو جديدٌ عليكَ، أو جديدٌ علىٰ زمَانِ أهلِ علمٍ شُهِرَ عندَهُم قَوْلٌ حتَّىٰ غَلَبَ عَلَيْهِم هٰذَا القَولُ.

فالمذمومُ الممقوتُ: هو الَّذي لا يُبنَىٰ علىٰ أصلٍ وثيقٍ، وَلَا يرجِعُ إلىٰ علمٍ عتيقٍ.

ثمَّ محلُّ هٰذَا الذَّمِّ: فِيمَا يتعلَّق بِهِ تقريرُ أصولِ الدِّين وبيانُ أحكامِه ممَّا تَتابَع عليه النَّاس، دونَ مَا بُنِيَ عَلَىٰ أصولِ الفهمِ والإدراكِ الَّتي جرىٰ عليهَا أهلُ العلمِ.

فمثلًا: لو قلتُ لكُمْ: إنَّ منْ أنواعِ علومِ الحديثِ نوعُ (المَقْرُونِ)؛ وهو أن يُذْكَرَ في الإسنادِ اثنانِ فأكثر؛ كأنْ يقولَ مسلمٌ: (حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ حُجْرٍ، وَيَحْيَىٰ بْنُ أَيُّوبَ، وَقُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ؛ جَمِيعًا عنْ إسماعيلَ بنِ جعفرَ...) إلَىٰ تمَامِه، فالثَّلاثة الأوائلُ تُسمَّىٰ روايتُهُم (مقرونًا)، وَهٰذَا النَّوع لَهُ وقوعٌ عند المُحدِّثينَ، ولهُ منفعةٌ في علمِهِمْ، فمِنْ منافعِه أنَّ هٰذَا يُسمَّىٰ (مُتَابَعَةً)، ففُلَانٌ وفلانٌ وفلانٌ رَوَوُا الحديثَ عنِ إسمَاعيلَ بنِ جعفرٍ، إلىٰ غير ذَٰلِكَ من منافعِه.

فحينئذٍ زيادةُ هٰذَا النَّوع ليس ممنوعًا منهَا؛ بل مأذونٌ بِهَا من وجوهٍ كثيرةٍ؛ **أيسرُها**: أنَّ أَوَّل مَنْ صَنَّف وعَدَّد أنواع علوم الحديث ممَّنْ صَنَّف في مصطلحِ الحديثِ هو ابنُ الصَّلاح، فذكرَ أنواعًا، وزادَ أهل العلمِ عليه أنواعًا، فزاد العراقيُّ، ثمَّ زادَ ابنُ حجَرٍ، ثمَّ زاد السُّيوطيُّ، حتَّىٰ بَلَّغها أكثرَ من تسعينَ نوعًا.

فالأصلُ عند أهلِ العلمِ في هٰذَا أنَّه محلٌّ للزِّيادةِ.

ولذَٰلِكَ ينبغِي أنْ يُحسِن المتكلِّمُ فِي العلمِ مواردَ الفهمِ من أصولِه الَّتي يُقرِّرها

أهلُه؛ حتَّىٰ يعرفَ ما يجرِي فيه القولُ، ومَا لَا يجرِي فيه القولُ.

وما كان ممنوعًا مِنَ القول فيه، فالسَّلامة فيه امتثال ما ذَكَره النَّاظم بقوله: (فَاغْتَنِمِ الصَّمْتَ مَعَ السَّلَامَهْ)؛ فَسَلَامَةُ دينِ الإنسانِ أن يمتثلَ الصَّمتَ؛ مُبتغيًا سلامةَ دينِه عندَ اللهِ، وعِرْضِه عندَ الخلقِ.

علىٰ أنَّ مَنْ نَبُلَ فِي العلمِ يُبْتلَىٰ بمَنْ لم يَصِل إلىٰ مرتبةِ النُّبْلِ فيهِ مِمَّنْ يُزَيِّف أَقْوالًا صحيحةً في كلِّ قرنٍ وزمانٍ، وَلٰكِنَّ طريقَ إيصالِ الخيرِ إليهِ ليسَ بمُلاجَجَتِهِ ومجادلَتِه بالباطلِ، وإنَّمَا بنَصْبِ الحقِّ، ولذَٰلِكَ فإنَّه **مَا مِنْ مسألةٍ يستغربُها سامعُها أذكرُهَا إلَّا وأذكرُ أحدًا من أهلِ العلمِ قالَ بهَا.**

فَهٰذِهِ المسائلُ الَّتي ذكرناهَا وأمثالُها من المسائلِ الَّتي يظنُّ بعضُ النَّاس أنَّ هٰذِهِ مسائلَ جديدةً؛ ما من مسألةٍ إلَّا وفيها من أهلِ العلمِ مَنْ تكلَّم؛ لأنَّ هٰذَا هوَ الأصلُ الَّذِي يَسْلَمُ به دينُ الإنسانِ ويحصلُ به النَّفع للخَلْق.

فإنَّه ليس المقصودُ مِن جَمْعِ العلم، أن يُنهِكَ المرءُ قلبَه ودينَه في مُراغمةِ النَّاس ومُجادلتِهم ومُجالَدَتِهم، وإنَّما مقصودُ صاحِبِ العلمِ الصَّادقِ أن يُوصلَه العلمُ إلىٰ الله، ويكونُ هو مُوصلًا لِلخَلْق إلىٰ اللهِ، فمتىٰ كانت هٰذِهِ نيَّتُه فَتَح الله عليه بأنواع المعارف ولم يُشغِلْه بالخَلقِ.

وما أحسن قولَ ابْنِ عَوْنٍ: «ذِكْرُ النَّاسِ دَاءٌ، وَذِكْرُ اللهِ دَوَاءٌ».

وقال مَكْحُولٌ الشَّامِيُّ: «ذِكْرُ النَّاسِ دَاءٌ، وَذِكْرُ اللهِ شِفَاءٌ».

فاشتغلوا بالدَّواء والشِّفاء، واحذروا من الدَّاء.

قالَ المصنِّف رحمه الله:

الْعِلْـــمُ بَحْــرٌ مُنْتَهَـــاهُ يَبْعُــدُ لَــيْسَ لَهُ حَــدٌّ إِلَيْــهِ يُقْصَــدُ
وَلَـيْسَ كُلُّ الْعِلْـمِ قَـدْ حَوَيْتَـهُ أَجَلْ وَلَا الْعُــشْرُ وَلَـوْ أَحْصَـيْتَهُ
وَمَـا بَـقِي عَلَيْـكَ مِنْـهُ أَكْـثَرُ مِمَّـا عَلِمْــتَ وَالْجَــوَادُ يَعْــثُرُ

قال الشَّارح وفّقه الله:

ذكر النَّاظِمُ مـمَّـا يُستعانُ بهِ في تحصيلِ الـمطلوبِ الــمأمولِ معرفتُه مـمَّـا يُسَـهِّل بلوغَ الأَرَب: إدراكُ هٰذِهِ الحقائقَ الـمذكورةَ في هٰذِهِ الأبياتِ الثَّلاثـةِ، فكـلُّ بيـتٍ منهَـا يُشَيِّد معنًىٰ سامقًا ذَا بَالٍ في العلمِ.

۞ **فأوَّلُهَا**: معْرِفَةُ مُلتمِسِ العلمِ أنَّ العلمَ واسعٌ لا مُنتهَىٰ له، كمـا قال النَّاظم:

الْعِلْـــمُ بَحْــرٌ مُنْتَهَـــاهُ يَبْعُــدُ لَــيْسَ لَهُ حَــدٌّ إِلَيْــهِ يُقْصَــدُ

۞ **والثَّاني**: معْرِفَةُ مُلتمِسِ العلمِ أنَّه مهمـا حَصَّل منهُ فلنْ يجمعَه كُلَّـه، ولا عُـشْــرَهُ، ولوِ اجْتَهَد في إحصائِه؛ فإنَّ القُوَىٰ البشريَّة تَتَناقصُ عن هٰذَا.

۞ **وثالثُها**: معْرِفَةُ مُلتمِسِ العلمِ أنَّ ما بَقِي وفَضُـلَ مـن العلـم وراءَ مـا أدركَـه أكثرُ وأعظمُ، وهي حالُ النَّقْص الَّتي طُبِـعَ عليهَا الإنسانُ، فالجَوَاد مهمَـا كان قويًّا يَعْرِضُ لَه عِثارٌ يسقطُ به.

فملتمِسُ العلمِ مهمَـا ابتغَىٰ منه مُجتهدًا، فإنَّه يبقـىٰ وراءَ مـا أدركَ مـنَ العلـمِ علـومٌ كثيرةٌ.

قالَ المصنِّف رحمه الله:

فَكُنْ لِمَا عُلِّمْتَهُ مُسْتَفْهِمَا ... إِنْ كُنْتَ لَا تَفْهَمُ مِنْهُ الْكَلِمَا

الْقَوْلُ قَوْلَانِ فَقَوْلٌ تَعْلَمُهُ ... وَآخَرٌ تَسْمَعُهُ فَتَجْهَلُهُ

وَكُلُّ قَوْلٍ فَلَهُ جَوَابُ ... يَجْمَعُهُ الْبَاطِلُ وَالصَّوَابُ

وَلِلْكَلَامِ أَوَّلٌ وَآخِرُ ... فَافْهَمْهُمَا وَالذِّهْنُ مِنْكَ حَاضِرُ

قال الشَّارح وفّقه الله:

ذكر النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ مِنَ الإرشادِ النَّافعِ لملتمسِ العلمِ: أنْ يطلبَ فَهْم ما يُلْقَىٰ إليه منهُ، وإذا عَسُر عليه فَهْم شيءٍ من معانِيهِ اجتهدَ في تَفَهُّمِه وسألَ عنه؛ **لأنَّ الأقوال الَّتي تُذْكَر لكَ في العلمِ هي بالنِّسبة لكَ نوعان:**

- **أحدُهُمَا**: قَوْلٌ تَسْمَعُهُ فَتَعْلَمُه وَلَا يَخْفَىٰ عَلَيْكَ.
- **والآخر**: قَوْلٌ تَسْمَعُهُ فتجهله وَيَخْفَىٰ عَلَيْكَ.

فالأوَّل إذا وصلَ إلىٰ قلبِكَ استقرَّ فيهِ، فإنَّك إذا فَهِمْتَ معنًىٰ من معاني العلمِ ووعَاه قلبُك، وجدَ له مَرْبعًا ومَحلًّا فيه.

وأمَّا ما تسمعُه فتجهلُه ويخفَىٰ عليك، فإنَّك تحتاجُ فيه إلىٰ الاستفهامِ والسُّؤالِ حتَّىٰ تُدرِك معناهُ، فيستقرَّ في قلبك.

فإذا عَسُر عليكَ فَهْم شيءٍ فاستعِدْ تَفَهُّمَه؛ إمَّا بتكرارِ النَّظر منكَ في سماعِ كلامِ مُعلِّمكَ، أو فِي الْتِمَاسِكَ منهُ إعادةَ بيانِ مَا سمعتَه منه ولم تفهمهُ.

وإيَّاك وإهمال فَهْمِ ما لَمْ تفهمْه؛ **فإنَّ تَرْك شيءٍ سمعتَه دونَ فَهْم يُورِثُ آفتينِ:**

- **الأولىٰ**: ثِقَلُ الفَهْمِ؛ فإنَّك إذا تركتَ شَيْئًا، وثَانِيًا، وثالثًا؛ تَبَلَّدَ ذِهنُكَ.

❁ **والأخرىٰ**: تَفْوِيتُ العلمِ؛ فإنَّك إذا تركتَ شَيْئًا، وثَانِيًا، وآخرَ؛ فَاتَتْكَ أشياءُ من العلمِ لم تُحسِن معرفتَهَا.

مَعَ ما يُقارِن هاتين الآفتين من عِلَلٍ أخرىٰ؛ كوقوعِ الشُّبهاتِ، وكثرةِ الاعتراضاتِ؛ ممَّا يُوجب الاعتناء بحُسن التَّفَهُّمِ.

فتارةً: تستعيد كلامَ مُعلِّمك ممَّا يُحفَظ صوتيًّا، فتُكرِّرَه حَتَّىٰ يَقَرَّ المعنىٰ في قلبكَ.

وتارةً: تُذاكِر به صاحبًا لك، فرُبَّما يذكرُ لكَ مَا عَزُبَ عنه فَهْمُك.

وتارةً: تَستعيدُ - بأَدَبٍ - من مُعَلِّمِكَ فَهْمَ ما لمْ تَفْهمْه.

فلَا تتركْ شيئًا تسمعُه من العلمِ دون فَهْمٍ؛ لمَا يُورثُه من نَقْصٍ سبقَ ذِكْرُه وبيانُ وجهِه.

ثمَّ ذكر النَّاظِمُ أنَّ كلَّ سؤالٍ يتعلَّق به جوابٌ، فمُراده بـ(القَوْلِ): السُّؤالُ؛ بِدلالة مُقابلتِهِ بالجواب، وذَٰلِكَ في قولِهِ:

وَكُلُّ قَـــوْلٍ فَلَـــهُ جَـــوَابُ يَجْمَعُـــهُ الْبَاطِـــلُ وَالصَّـــوَابُ

فالجوابُ له جهتَانِ:

❁ **إحداهما**: الجَوَابُ الصَّحيحُ، المَدْلُولُ عَلَيْهِ بقولِه: (الصَّوَابُ).

❁ **والأخرىٰ**: الجَوَابُ الخَطَأُ، المَدْلُولُ عَلَيْهِ بقولِه: (البَاطِلُ).

وتحقيقُ الحُكمِ علىٰ الجوابِ بإحدَى الجهتينِ، مُناطٌ بموافقةِ الأدلَّةِ ومتابعَةِ الأَجِلَّةِ، فرِعاية هٰذَا يُوقِف العبد علىٰ جَلِيَّةِ الأَمرِ فِي الحُكمِ عَلَىٰ جوابٍ بأنَّه خطأٌ أَوْ صوابٌ، لَا بمجرَّد الذَّوق، أوِ الوَجْدِ، أو الخَاطِرِ، أو ما تَعَارَفَ عليه النَّاس، أو مَا اعتادُوه في بلدٍ؛ فمثلُ هٰذِهِ المعاييرِ ليستْ ميزانًا صحيحًا فِي الحُكمِ عَلَىٰ شَيْءٍ منَ الأجوبةِ بأنَّهُ جوابٌ صَحِيحٌ أَو جوابٌ خطأٌ.

وهٰذِهِ القاعدةُ تختَصُّ ببعضِ الكلامِ في العلمِ، وهوَ مَا وقعَ جَوابًا علَىٰ سؤالٍ.

ثمَّ ذكر قاعدةً عامَّةً فيه، فقال:

وَلِلْـــــــكَلَامِ أَوَّلٌ وَآخِـــــــرُ فَافْهَمْهُمَا وَالذِّهْنُ مِنْـكَ حَـاضِرُ

والـمقصودُ: أنَّ كلَّ كلامٍ فَلَهُ مبتدأٌ وله مُنتهًىٰ، وله سِباقٌ وله لِحَاقٌ، ولـه إفـرادٌ ولـه سِياقٌ؛ فكمـالُ فَهْمِه يكونُ برعايةِ مواقعِه.

فتعتبِـرُ أوَّلَ الكلامِ وآخِرَه، وسِبَاقَه ولِحاقَه، وإفرادَه وسـياقَه؛ فيُوقِفُـك ذَٰلِـكَ علـىٰ الفهمِ الصَّحيح له.

فإن أخذتَ أوَّلَه وتركتَ آخره، أو أخذت سِباقَهُ وتركتَ لحاقَـه، أوِ اكتفيـتَ بمفـردٍ دونَ النَّظر في تركيبِ سياقٍ؛ أوقعَكَ ذَٰلِكَ في رَدِّ كلامٍ حقٍّ، ودَفَعك إلىٰ الزُّور والباطـل في العلمِ.

وهي حالُ كثيرٍ من النَّاس، الَّذين يُبادرونَ إلىٰ تزييفِ حـقٍّ لأنَّهـم ينظـرونَ إلـىٰ أوَّل الكلامِ دونَ آخرِه، أوْ ينظرونَ إلىٰ سِباقِهِ دون لِحاقِه، أو ينظرونَ إلىٰ إفرادِه دونَ تركيبِ سِياقِه، فيقعُون فِي الغلط علىٰ العلم وأهلِهِ.

فمَنْ أرادَ أن يَسْلَمَ لهُ دينه وعِلمُه وعقلُه، لاحظَ هٰذَا في مواقِعِه من الكلامِ؛ فإنَّه يوقفُهُ علىٰ الـمعانِي الصَّحيحةِ، ويـدفَع عنـهُ دعْـوَىٰ الـزُّورِ الَّتـي يـدَّعيها مَـنْ يـدَّعيها علـىٰ الـمتكلِّمين في العلم.

ولا يمكن حصولُ تلكَ الحالِ إلَّا بأن تكون حاضـرَ الـذِّهن حـينَ ذَٰلِـكَ، **والــمراد بـ(حضورِ الذِّهنِ)**: إقبالُ القَلْبِ عَلَىٰ الـمَعْنَىٰ الـمُرَادِ فَهْمُهُ، فإنَّك إذا زاغَ ذِهنـك مُـدَّةً وحضـر مُدَّةً؛ أوقعَكَ في الغَلَطِ.

وأذكر من وقائع الأحوالِ: أنَّ أحدًا نَسَب إليَّ أنِّي أقول: إنَّ (هُـو) مـن أسمـاء اللهِ!، وذكرَ أنَّني قرَّرتُ هٰذَا في جامعِ الرَّاجِحي بـ(شُبْـرَا)، وأنَّه كان أحـدَ الحاضـرينَ، فلمَّـا

ذُكِرَت هٰذِهِ الدَّعوىٰ لي ضحكتُ وذكرتُ هٰذِهِ الأبياتَ.

فإنَّني كنت أُقرِّر الفرقَ بين الاسمِ المفرد للهِ، والاسم المضافِ؛ **فالاسمُ المفردُ** هو الَّذِي يأتي واحدًا؛ مثلُ: (الله).

والاسمُ المضافُ هو الَّذي يأتي مجموعًا مع غيره؛ مثل: (ربِّ العالمينَ، ومالك الملكِ).

وذكرتُ أنَّ ابنَ القيِّم زاد نوعًا ثالثًا، هو الأسماء الإلهيَّة المزدوجَة المتقابلة؛ كاسمِ (القابضِ الباسطِ)، فلا يُفصَلُ أحدُ طرفيهِ عن الآخرِ، بمنزلةِ عَدم فَصْل حروف الاسمِ المفردِ، فلا يصحُّ أن تقولَ في اسمِ (القابضِ الباسطِ): أنَّ من أسماء اللهِ (القَابضُ)، أَوْ أنَّ مِن أسماء الله (البَاسطُ)؛ بلِ الاسم حينئذٍ هو (القابضُ الباسطُ)، فيمتَنِعُ الفصلُ بينهُمَا؛ كمَا يمتنعُ الفصلُ بين حروفِ اسم (الله)، فلا تقول: (أ) اسمٌ، ولا (اللَّام) اسمٌ، ولا (هُـ) اسمٌ.

فسمع هوَ: (هُـ) اسمٌ، فقالَ: إنَّ فلانًا يذكرُ أنَّ (هو) من أسماءِ اللهِ؛ لأنَّ ذهنَه حينئذٍ لمْ يكنْ حاضِرًا، وإنَّمَا كان شاردًا، فسمِع هٰذِهِ الكلمة فظنَّ أنَّ فيها تقريرًا لكونِ هٰذِهِ الكلمة (هُو) من أسماءِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والعاقلُ يلتمس العذرَ للمتعلِّمينَ، فإنَّ هٰذَا ممَّا لا يُستغرَب منه؛ بل لا يُستغرَبُ ممَّنْ يريدُ بكَ السُّوءَ، فإنَّ هٰذَا أَمْرٌ جُبِلَتْ عليه خَلِيقَةُ الإنسانِ، فإنَّ النَّاس يتنافسونَ، ويتَصارَعُونَ، ويريدُونَ الجَاهَ والرِّئَاسةَ والزَّعامةَ، ويبتغِي بعضُهُم فِي بعضٍ خطأَهُ؛ لإزلَالِه وإنزالِه عن رُتبةٍ بلغها.

فالعاقلُ إذا رأَىٰ هٰذَا في النَّاسِ، عَامَلَهُم بمَا أَمَرهُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وعَقَلَ أنَّ هٰذِهِ حالٌ بشريَّةٌ، فَالمُتَرَفِّعونَ عنِ البشريَّة، المُزَكّون أنفسهم بما يُطَهِّرها، لا يلتفتون

إلىٰ مثل هَذَا، ويرون أنَّ صدور هٰذَا من الـمتعلِّمين زَلَّاتٌ ينبغِي إفهـامُهم فيهَـا القـولَ الصَّوابَ.

والشَّاهدُ منَ الحِكَايةِ: أَنَّ مَا أَرشَدَ إِليهِ مِن كوْنِ حصولِ تِلكَ الحَالِ، لَا يُمكنُ إلَّا مع حضور الذِّهنِ، وأمَّا معَ شُـرُودِه فإنَّه لا يحصُل للمرءِ ذَٰلِكَ.

قالَ المصنِّف رحمه الله:

لَا تَـــدْفَعِ الْقَـــوْلَ وَلَا تَـــرُدَّهُ حَـــتَّى يُؤَدِّيـــكَ إِلَى مَـــا بَعْـــدَهُ
فَرُبَّمَـــا أَعْيَـــا ذَوِي الْفَضَـــائِلِ جَـوَابُ مَـا يُلْـقَى مِـنَ الْمَسَـائِلِ
فَيُمْسِكُوا بِالصَّمْتِ عَنْ جَوَابِـهِ عِنْدَ ٱعْتِرَاضِ الشَّـكِّ فِي صَـوَابِهِ

قال الشَّارح وفّقه الله:

لَـمَّـا ذكر النَّاظِمُ في البيت السَّابقِ ما يُعينُ علىٰ فَهْمِ الكـلام، حَـذَّر مـن آفـةٍ تعـرِض لـمَنِ استغلَقَ عليهِ فَهْم شيءٍ منه، وهيَ (الـمبادرةُ إلىٰ دَفْعِه ورَدِّه)، فمِنَ النَّاس مَـنْ إذا استغلَقَ عليه فَهْمُ شيءٍ لم يُدركْه؛ بادرَ إلىٰ رَدِّه ودَفْعِه.

والواقِي من السُّقوطِ في هٰذِهِ الآفةِ: هو ملاحظة مـا يـأتي بعـد ذٰلِـكَ الكـلام، فرُبَّمَـا سمِعتَ كلَامًا عامًّا يفتقرُ إلىٰ التَّخصِيصِ، أو كلامًا مُطلقًا يحتاجُ إلىٰ التَّقْييـد، فبـادرتَ إلىٰ إنكارِه قبلَ ظهورِ تَـمَـامِه، وهوَ الـمُعينُ عَلَىٰ فَهْمِه وإفهامِه.

كقَولِ الله تعالَىٰ: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ۝٤﴾ [الـماعون]، فهٰذِهِ الآيةُ لا يتمُّ معناها إلَّا بقَرْنِها بالآيةِ الَّتي بعدَها، في قولِـه: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ۝٥﴾ [الماعون]، فمَنْ يُقرِّر معنَىٰ الويلِ للمصلِّين بإطلاقٍ مُبطِلٌ، ومن يُقـرِّر معنـىٰ: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ۝٤﴾ إذَا كانُوا علَـىٰ الحـالِ الَّتـي ذكرهَـا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في قولِـه: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ۝٥﴾ [الماعون]؛ كان مُحِقًّا فيمـا قرَّره.

فإنْ أعيَا السَّامعَ فَهْمُ كلامٍ، وتطلَّعت نَفْسُه إلىٰ رَدِّه ودَفْعِه وإبطالِه؛ حَسُنَ بـه أن يَـرُدَّ بعضَه علىٰ بعضٍ، قبل الهجومِ علىٰ إنكارِه وتزييفِه؛ اقتداءً بمسالكِ أهـل العلـم فيمَـا

هُم عليهِ من أجوبةِ مسائلِ الخلقِ فيما يحتاجون إليه من الحقِّ.

فإنَّ أهلَ العلمِ لا يُبَادِرُونَ بجوابِ استفتاءاتِ المُسْتَفْتِينَ حتَّىٰ يُتِمَّ المستفتِي كلامَه، كمَا قالَ:

فَرُبَّمَا أَعْيَا ذَوِي الْفَضَائِلِ جَوَابُ مَا يُلْقَى مِنَ الْمَسَائِلِ

فَيُمْسِكُوا بِالصَّمْتِ عَنْ جَوَابِهِ عِنْدَ ٱعْتِرَاضِ الشَّكِّ فِي صَوَابِهِ

فمِنْ حالِ كُمَّلِ المفتِينَ إذَا عُرِضَتْ عليهمْ فتْوًىٰ، أنَّهم لا يُبادرُونَ إلَىٰ الجوابِ فيهَا؛ حتَّىٰ يتبيَّن لهم تمامُ القولِ من المستفتِي، ثمَّ يُجيبونَه.

فتلكَ الحالُ الَّتي تصلح بِها حال النَّاس في الفتْوَىٰ، هيَ الحالُ الَّتي تصلحُ بِهَا حالُهُم في فَهْمِ العلمِ، فَلَا يكمُل لهمُ الفهمُ ولا يَتِمُّ لهمْ إدراك معانيهِ إلَّا باستِتْمَامِ مبانيهِ، فإذا صارت وافيةً تبيَّن لهمُ المعنَىٰ.

قالَ المصنِّف رحمه الله:

وَلَوْ يَكُونُ الْقَوْلُ عِنْدَ النَّاسِ مِنْ فِضَّةٍ بَيْضَا بِلَا ٱلْتِبَاسِ
إِذَالَكَانَ الصَّمْتُ مِنْ عَيْنِ الذَّهَبْ فَافْهَمْ هَدَاكَ اللهُ آدَابَ الطَّلَبْ

قال الشَّارح وفّقه الله:

ذكر النَّاظِمُ في هٰذَين البَيْتَيْنِ ما يُقَوِّي وازِعَ الصَّمْت في النَّفْس، ويدعُوهَا إلىٰ الإمساكِ عن كثيرٍ من القول، وهمَا معنَىٰ حِكمةٍ سَيَّارةٍ: (إِذَا كَانَ الكَلَامُ منْ فضَّةٍ؛ فَالسُّكُوتُ مِنْ ذَهَبٍ).

وَالكلام الَّذي يكون فضَّةً: هوَ ما لا يتبيَّنُ نَفْعُه من ضَرَرِه، **أَمَّا بَيِّنُ النَّفْعِ**: فإنَّه من خالِصِ الذَّهب، **كَمَا أَنَّ بَيِّنَ الضَّرَرِ**: شُوَاظٌ منَ اللَّهبِ.

فالكلام المُرادُ إخراجُه له ثلاثةُ أقسامٍ:

أحدُها: كَلَامٌ بَيِّنُ النَّفْعِ؛ وَهٰذَا مِنْ خَالِصِ الذَّهَبِ.

وثانِيهَا: كَلَامٌ بَيِّنُ الضَّرَرِ؛ وهٰذَا شُواظٌ منَ اللَّهَبِ.

وثالثُها: كَلَامٌ لا يتبيَّنُ نَفْعُه من ضَرَرِه؛ فهو الَّذي يُعْدَل بالفضَّة، ويكون السُّكوتُ حينئذٍ من ذهبٍ، فإنَّ العبد مأمورٌ بقولِ الخيرِ أوِ الصَّمت عمَّا عداهُ.

والحِكمة المذكورةُ - (إِذَا كَانَ الكَلَامُ منْ فضَّةٍ؛ فَالسُّكُوتُ مِنْ ذَهَبٍ) - مأثورةٌ عن جماعةٍ منْ القدمَاءِ؛ منهم نَبِيُّ الله سُلَيمَانُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولُقْمَانُ الحكيمُ - الرَّجل الصَّالح.

ثمَّ ختم النَّاظم بالتَّأكيد علىٰ فَهْم ما ذَكَر في هٰذِهِ المنظومةِ من الآدابِ فقـالَ: (فَـافْهَمْ هَدَاكَ اللهُ آدَابَ الطَّلَبْ)؛ داعيًا إلىٰ حُسْن تَفَهُّمِ هٰـذِهِ الآدابِ، فـإنَّ فَهْمَهَـا يـدعُو إلَـىٰ العملِ بِهَا، كمَا أنَّ عدمَ فَهْمِهَا يحولُ دونَ العملِ بِهَا.

وقَرَنَ الأمرَ بالدُّعاء؛ ترغيبًا فيها، وتحبِيبًا لها إلَىٰ النُّفوس؛ ليحرصُوا عليهَا، ويمتثلُوا مُقتضَاهَا.

قالَ المصنِّف وفّقه الله:

أَبْيَاتُهَا مَعَ الزِّيَادَاتِ الَّتِي ... حَبَّرْتُهَا بِأَرْبَعِينَ عُدَّتِ

قال الشَّارح وفّقه الله:

خَتمَ جَامعُ هٰذِهِ النُّبذة بهٰذَا البيتِ من زياداتِه، المُبيِّنِ عدَدَ أبياتِ هٰذِهِ المنظومةِ، وأنَّها أرْبعون بيتًا.

لِي منهَا خَمْسَةٌ: أربعةٌ في أوَّلِها، وواحدٌ في آخرهَا.

وما بقيَ فهوَ أصلُ المنظومةِ.

ومعنىٰ قولِه: (حَبَّرْتُهَا)؛ أَيْ زَيَّنْتُهَا بِزِيادَةِ الحِبْرِ فيهَا، فإنَّ **التَّحبيرَ** هوَ التَّزيينُ.

وَمِن تَزْيينِ الخطِّ: تسويدُ حِبْرِهِ.

فإنَّ الحِبْرَ إذَا كَانَ قَوِيًّا بَانَ المكتوبُ وَظَهَرَ، كَمَا يبدُو ذٰلِكَ جليًّا إذا قَارَنتَ الأبياتَ الَّتي زِيدتْ ببقيَّةِ الأبياتِ، وهي مُحَبَّرَةٌ في خَطِّهَا، وغيرُها منْ أصلِ المنظومةِ مُحَبَّرةٌ في معانِيها النَّافعة.

فهٰذِهِ المنظومةُ هي من أحسنِ ما نُظِمَ في آدابِ الطَّلَب ممَّا هو وجيزٌ؛ كما ذكره أَبُو عُمَرَ ابْنِ عَبْدِ البَرِّ فِي «جَامِعِ بَيَانِ العِلْمِ وَفَضْلِهِ».

فحقيقٌ بنَا جميعًا: أن نحرصَ علىٰ حِفْظ هٰذِهِ المنظومةِ، أو تكرارهَا حتَّىٰ ترسخَ معَانيهَا فِي نُفُوسِنَا، وأن نُحسِن تَفَهُّم تلكَ الحقَائِقِ، ثمَّ نمتثلَهَا بالعملِ.

فإنَّ بابَ الآداب ممَّا وقعَ فيهِ العَجَبُ العُجابُ، فَضَيَّعهُ كثيرٌ منَ المنتسبينَ إلَىٰ طَلَبِ العلمِ؛ فحُرِمُوا العلمَ بسببِ تضييعِ الأدبِ، فمَنْ ضَيَّع الأدبَ حُرِمَ العلمَ، ومَنِ

التزمَ الأَدَب فهوَ جديرٌ بأنْ يكونَ من أهلِ العلمِ.

وبـهٰذَا البيانِ يَتِمُّ بيانُ معانِي هٰذِهِ الـمنظومةِ علىٰ مَا يُوافقُ ويناسبُ المقَامَ.

تَمَّ الشَّرْحُ فِي مَجْلِسٍ وَاحِدٍ
لَيلةَ الخَميسِ الخامسِ من شَهْرِ المُحَرَّم
سَنَةَ ثمانٍ وَثَلاثِينَ بَعْدَ الأَرْبَعِمِائَةِ وَالأَلْفِ
فِي مَسْجِدِ مُصعب بن عُميْرٍ بِمَدِينَةِ الرِّياض

فَوَائِد

فَوَائِد

فَوَائِد

فَوَائِد

فَوَائِد

فَوَائِد

فَوَائِد

فَوَائِد